36

الكتاب الأكثر متعة

عندما كان الكبار تلامذة



قصص لواحد وعشرين تلميذاً أصبحوا من أعظم مفكري وأدباء العالم العربي

يوسف القرضاوي
عبد القادر القط
سهير القلماوي
إحسان عباس
جابر عصفور
عبد الرحمن بدوي
محمد الغزالي
أحمد أمين
عائشة بنت الشاطئ
محمد متولي الشعراوي
علي الطنطاوي
زاهر الألمعي
غازي القصيبي
مصطفى عبد الرازق
حسن البنا
ابن عقيل الظاهري
نزار قباني
طه حسين

مركز الراية للتنمية الفكرية

إبراهيم مضواح الألمعي

إبراهيم مضواح الألمعي

عندما كان الكبار تلامذة

يحدثونك عن أساتذتهم

إحسان عباس
أحمد أمين
أحمد السباعي
ابن عقيل الظاهري
جابر عصفور
حسن البنا
زاهر الألمعي
سهير القلماوي
طه حسين
عائشة بنت الشاطئ
عبد الرحمن بدوي
عبد القادر القط
علي الراعي
علي الطنطاوي
غازي القصيبي
محمد الغزالي
محمد متولي الشعراوي
مصطفى أمين
مصطفى عبد الرازق
نزار قباني
يوسف القرضاوي



الطبعة الأولى
2006 م



الجمهورية العربية السورية
دمشق _ص.ب 9184
هاتف : 6119361

وكلاء التوزيع
في المملكة العربية السعودية
مكتبة بستان المعرفة
جدة شارع الستين مركز النصار
التجاري
الدور الربع رقم المكتب ٤٠٥
هاتف : ٦٦٨٦٨١٠
فاكس : ٦٦٨٦٨٢٠

عنوان الكتاب
عندما كان الكبار تلامذة

المؤلف
إبراهيم مضواح الألمعي

التنفيذ الطباعي
مركز الراية للتنمية الفكرية

قياس الصفحة : 12×20
عدد الصفحات : 126





@KOTOKHATAB

توطـــئة:

يوماً بعد يوم يـزداد شغفي بقراءة السِّيَر الذاتية، وتزداد المتعة التي أجدها عندما أرى إنساناً تمتد قامته عقوداً من الزمن يلتفت إلى الـوراء متأملاً آثـار وقع قدميه بعد السير الطويل، وللمتعة التي نجدها في هذا الفن الأدبي أعني(السيرة الذاتية) يرى الروائي العالمي (غابرييل ماركيز)(١) أن الحياة الحقيقية ما تختزنه الذاكرة ثم نرويه، لا ما نعيشه فقط، فيفتتح كتابه(عشت لأروي)بقوله: "الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، وإنما هي ما يتذكر، وكيف يتذكره ليرويه"(٢). على أنه يتسرب إلى هذا النوع من التأليف حظوظ النفس. وتبرير المواقف، وتجميل الأحداث،مما لا ينطلي على فطنة القارئ الفاحص..

ومما يلفت انتباه قارئ السير الذاتية بروز مرحلة التَّعلُّم بأحداثها، ومواقفها، وتأثيرها على اتجاه الكاتب، وتأسيسها للمراحل الحياتية التالية لها، وبداية تكوين العلاقات الإنسانية مع المحيط الذي يتجاوز حدود الأسـرة، فنجد رصداً دقيقاً لمواقف المعلمين وتصرفاتهم، وكلامهم وحركاتهم وسكناتهم، وعلاقاتهم بتلاميذهم، ونلحظ ذلك بشكل أكبر في حياة الأدباء خاصة والمثقفين بشكل أعم، مما يجعلهم يفردون صفحات غير قليلة في سيرهم الذاتية لمراحل تعليمهم، مما جعلني أتساءل: فيما لو عَلِمَ أولئك المعلمون، أن من بين تلاميذهم من سيُخلِّد

(١) – غابرييل غارسيا ماركيز: (١٩٢٨م –........) روائي كولومبي عالمي شهير نال جائزة نوبل في الأداب عام ١٩٨٢م.
(٢) – عشت لأروي: غابرييل غارسيا ماركيز – ترجمة: صالح علماني – ج١ – ص ٧ – دار البلد للنشر والتوزيع – دمشق – ط١-٢٠٠٢م.

أسماءهم، ويرصد حركاتهم بل وسكناتهم، ويقيِّم مواقفهم، هل كانت كلماتهم ومواقفهم ستكون هي هي، أم أنها ستكون شيئاً آخر مختلفاً؟! وأكاد أقول:(لا لن تكون) وأقدِّم هنا ما يؤيد غلبة ظني هذا، عبر هذه الصفحات التي تركِّز على جانب العلاقة بين التلاميذ ومعلميهم من خلال ما يختزنه التلاميذ في ذاكرتهم من مواقف وذكريات أثَّرَتْ بشكل أو بآخر في حيواتهم، ثم استرجعوها في موهن من العمر فدونوها، ثم ذهب الأستاذ والتلميذ وبقيت شهاداتهم للتاريخ..

قديماً فعلوا:

وقد جرت سنة العلماء من قديم أن يسجلوا شهاداتهم لشيوخهم ومعلميهم، ومن قرأ الذهبي(٣) في(سير أعلام النبلاء)والشوكاني(٤) في(البدر الطالع)وجد ذلك بيّناً، وكذلك نجد الإمام ابن الجوزي(٥) في كتابه (صيد الخاطر)، يوجز الكلام عن شيوخه فيقول: "لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه.

ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعونً الجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ. ولقيت عبد الوهاب الأنماطي(٦) فكان على قانون السلف لم يُسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه، فكنت وأنا صغير السن حينئذ يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل، ولقيت أبا منصور الجواليقي(٧)، فكان كثير الصمت،

---

(٣) - الذهبي: (٦٧٣- ٧٤٨هـ) حافظ، مؤرخ، علامة محقق.
(٤) - الشوكاني: (١٧٦٠م - ١٨٣٤م) فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء.
(٥) - ابن الجوزي: (٥٠٨هـ - ٥٩٧هـ) علامة عصره في التاريخ والحديث، له نحو ثلاث مئة مصنف، مولده ووفاته ببغداد.
(٦) - عبد الوهاب الأنماطي: (٤٦٢هـ - ٥٣٨هـ) محدث بغداد في عصره، مولده ووفاته فيها.

شديد التحري فيما يقول، متقناً محققاً، وربما سُئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن، وكان كثير الصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما" (٨).

الغزالي يعرب وأستاذه يبكي :

وعلى الرغم من تغير الزمان والمكان، يبقى اثر دموع الأستاذ في نفس التلميذ كما هو، ومصداق ذلك في المقارنة بين كلام ابن الجوزي عن شيخه عبد الوهاب الأنماطي، وكلام الشيخ محمد الغزالي(٩) عن أحد اساتذته إذ يقول: "سألني مدرس النحو وأنا طالب في المرحلة الابتدائية: أعرب يا ولد "رأيت الله أكبر كل شيء" فقلت على عجل: رأيت فعل وفاعل، والله منصوب على التعظيم!

وحدثت ضجة من الطلبة، ونظرت مذعوراً إلى الأستاذ، فرأيت عينيه تذرفان!! كان الرجل من أصحاب القلوب الخاشعة، وقد هزه أني التزمت الاحترام مع لفظ الجلالة – كما علموني – فلم أقل إنه مفعول أول، ودمعت عيناه تأدباً مع الله!كان ذلك من ستين سنة أو يزيد.. رحمه الله وأجزل مثوبته!" (١٠)

(٧) – أبو منصور الجواليقي: (٤٦٦ هـ – ٥٤٠هـ) عالم بالأدب واللغة، مولده ووفاته ببغداد.

(٨) – صيد الخاطر: ابن الجوزي – مراجعة وتحقيق(علي وناجي الطنطاوي) ص ١٤٠ – دار المنارة للنشر والتوزيع- جدة – ط٥ – ١٩٩١م.

(٩) – محمد الغزالي: (١٩١٧م – ١٩٩٦م) أحد أبرز الدعاة والمفكرين المعاصرين، امتاز بسعة الأفق وأدبية الأسلوب، وفقه الواقع. ولد بمصر وتوفي بالرياض ودفن بالبقيع في المدينة المنورة.

(١٠) – مجلة (إسلامية المعرفة) – العدد السابع – رمضان ١٤١٧ هـ – يناير ١٩٩٧ م – ص١٥٦

وقد تناول المعاصرون أساتذتهم وسجلوا مواقفهم وأقوالهم، فحمدوا المخلصين الصادقين من المعلمين، الذين يتصلون بتلاميذهم، ولا يَحْرِفُونَ إلى غيرهم أنظارَهم، في حنو الأب، ودأب المؤمن بجلال رسالته، وذَمّوا أولئك الذين كانت عيونهم تتجه إلى من فوقهم من المسؤولين، أو لا تتجاوز النظر إلى دريهمات يقبضها أحدهم آخر الشهر، فلا تسد فاقته.. ومما يدعو للأسف أن يتحول المعلم إلى مجرد موظف، وليس أقبح من ذلك إلا التصريح به، وما كان يخطر ببالي أن يُصرّح معلمٌ بذلك أمام تلاميذه أو يُلمّح حتى قرأت قول الشيخ يوسف القرضاوي(١١) في ذكرياته:

" وقد كان كثير منهم يصرح بأن أكبر همه هو الراتب. وأذكر أن واحدًا منهم[من المعلمين] كان مغضوباً عليه، وقد نقل من القاهرة إلى طنطا، فسألناه : ألا يغضبك هذا ؟ فقال بصراحة : أن لا يهمني إلا راتبي، لو نقصوني جنيهاً واحداً أو أقل، لقاتلت شيخ الأزهر من أجله ! "(١٢).

وما أكثر الذين تناولوا معلميهم بالنقد ومراجعة المواقف فمنهم من ذم أناساً وأثنى على آخرين فكان ذمُّه أكثَر من ثنائه كطه حسين(١٣)، ومنهم الساتر للمسيئين المعتذر لهم، المفيض في فضل شيوخه ومعلميه كعلي الطنطاوي(١٤)،

---

(١١) – يوسف القرضاوي: (١٩٢٦م –.......) فقيه أزهري مصري مجدد، من أبرز علماء الإسلام المعاصرين، يقيم في قطر.
(١٢) – ابن القرية والكتّاب : د. يوسف القرضاوي – ج١/ص٢٠١ – دار الشروق – القاهرة – ط١ / ٢٠٠٤م
(١٣) – طه حسين: (١٨٨٩م – ١٩٧٣م) من كبار المحاضرين، أحدث ضجة في عالم الأدب العربي، لقب بعميد الأدب العربي.
(١٤) – علي الطنطاوي: (١٩٠٩م – ١٩٩٩م) أديب وفقيه أ اشتغل بالأدب والقضاء، وسطع في الحديث الإذاعي والتلفزيوني، ...شامي المولد والنشأة.

ومنهم من كان شتاماً لأكثر الذين عرف، من معلمين وغير معلمين كعبد الرحمن بدوي(١٥)، الذي لم أره أفاض في الثناء على أحد سوى الشيخ مصطفى عبد الرازق(١٦)، ولا عجب في ذلك، فمن عرف مصطفى عبد الرازق ولم يثن عليه؟!

الأستاذ المجمع على حبه:

وإذا لم يكن الثناء على مصطفى عبد الرازق مثيراً للعجب فإن المثير للعجب حقاً هو اجتماع تلك السجايا في رجلٍ واحد، ولعجبي أسوق جملاً من ثناء معاصريه وتلاميذه عليه، فقد أسبغ الدكتور عبد الرحمن بدوي – على غير عادته - أوصافاً عظيمه على الشيخ مصطفى عبد الرازق فقال: "لقد كان النبل كله، والمروءة كلها. كان دائماً هادئ الطبع، باسم الوجه، لا يكاد يغضب، وإن غضب لم يُعبّر عن غضبه إلا بحمرة في وجهه وصمتٍ كظيم: لقد كان آية في الحلم والوقار. لكنه وقار عفو الطبعِ، لا تكلّف فيه ولا تصنع، وفي حالات الأنس بمحدثيه من الأصدقاء أو التلاميذ كان ودوداً محباً للسخرية الخفيفة، وإذا أراد التقريع لجأ إلى التهكم اللاذع.

---

(١٥) – د. عبد الرحمن بدوي: (١٩١٧م – ٢٠٠٢م) فيلسوف مصري، درّس الفلسفة في الجامعات المصرية والفرنسية، والليبية، والإيرانية، وألف وترجم كتبا كثيرة في الفلسفة.

(١٦) – مصطفى عبد الرازق: (١٩٨٥م – ١٩٤٦م) باحث في الشريعة والأدب، كان وزيراً للأوقاف، ثم شيخاً للأزهر.

وكان آية في الإحسان إلى الآخرين، ما لجأ إليه مظلوم إلا حاول إسعافه، أو صاحب حاجة إلا بذل ما استطاع حتى لو كان من ماله، وكم له من أياد بيضاء على بعض طلابه الذين سألوه المساعدة، رغم أنهم لا يستحقونها، كما تجلى في سلوكهم فيما بعد!. وكان عزوفاً عن المناصب الإدارية، يتنازل عنها لمن هو حريص عليها" (١٧).

وعنه يقول الكاتب الكبير نجيب محفوظ(١٨) بعد حديثه عن بعض معلميه: " الشيخ مصطفى عبد الرازق هو أكثرهم تأثيراً خلال الدراسة الجامعية، الشيخ مصطفى عبد الرازق هو مثال للحكيم كما تتصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطباع، خفيض الصوت لا ينفعل ولم أره مرة يتملكه الغضب" (١٩)

وعنه يقول: خير الدين الزركلي(٢٠) في كتابه (الأعلام): "كان هادئ الطبع، يتمهل في تفكيره قبل أن يتكلم أو يكتب، وقوراً مع التواضع، يستجم لبعض أنسه ولا يتبذل، نقي الأسلوب في بيانه، نير الفكر محاضراً وكاتباً، يحاسب نفسه على كل كلمة" (٢١)

وعنه تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في كتابها (أعلام في حياتنا): "كان مهيب الطلعة، وكان خاشع الصوت، دمث

---

(١٧) سيرة حياتي: عبد الرحمن بدوي - ج١ - ص ٦١ - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط١ - ٢٠٠٠م

(١٨) نجيب محفوظ: (١٩١١م -......) كاتب قصة وروائي متميز، حاز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩م.

(١٩) نجيب محفوظ: صفحات من مذكرات وأضواء جديدة على أدبه وحياته: إعداد. رجاء النقاش - ص٦٣ - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط١ - ١٩٩٨م.

(٢٠) خير الدين الزركلي: (١٨٩٣م - ١٩٧٦م) شاعر رقيق وأديب سوري. اشتغل بالدبلوماسية. أنجز كتاب الأعلام في ... مجلدات الذي يعده بعضهم من أهم ما ألف في قرن العشرين.

(٢١) الأعلام. خير الدين الزركلي - ج٧ - ص ٢٣١ - دار العلم للملايين - بيروت - ط٨ - ١٩٨٩م.

الأسلوب والنفس والبيان، لم ينطق في حياته لفظاً نابياً، ولم يكتب في حياته أسلوباً فجاً، كان عف اللسانِ واليدِ والضمير" (٢٢)

ويصفه الأستاذ كامل الشناوي في كتابه(لقاء معهم)فيقول:"كانت أفكاره وألفاظه ومشاعره وعقيدته وأخلاقه مثل ثيابه نظيفة" (٢٣)

بين الإمام والتلميذ:

وإذا كان هذا رأي تلاميذ مصطفى عبد الرازق ومحبيه فيه، فلننظر إلى مواقفه مع أستاذه الإمام محمد عبده(٢٤)، وقد دون ذلك الدكتور محمد رجب البيومي(٢٥) أحد الذين كتبوا بحروف مدادها الحب للإمام ولتلميذه، فقال:" نشأ مصطفى في بيت علم وجاه، إذ كان جده من كبار قضاة الشرع في عصره، وله ذيوع ممتد بالعلم والكرم، أما والده فقد تعلم بالأزهر، ودرس كتبه، ثم اتصل بالسياسة عَلَماً ذا رأي مسموع في مجالس النيابة، ومواقف السياسة، وقد شارك الشيخ محمد عبده في مواقف كثيرة، فانعقدت بين الرجلين أواصر الصداقة، ونشأ مصطفى، فاتجه به والده إلى الدراسة الدينية، وجعل ينظر فيمن يتصدرون للعلم

(٢٢) – أعلام في حياتنا: د. نعمات أحمد فؤاد – ص١٧- كتاب الهلال – العدد ٦١٢ – يناير ٢٠٠٢
(٢٣) – عن كتاب: أعلام في حياتنا: د. نعمات أحمد فؤاد – ص١٧- مرجع سابق
(٢٤) – الإمام محمد عبده: (١٨٤٩م – ١٩٠٥م) مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام.
(٢٥) – د .محمد رجب البيومي: (١٩٢٣م –......) شاعر وأديب، وباحث متعمق في الأدب، وله عددٌ من الدواوين والمسرحيات الشعرية والكتب والبحوث والدراسات الأدبية والنقدية والتاريخية.

بالأزهر وخارجه، فلا يجد أنبه من الأستاذ الإمام ذكراً، ولا أكثر منه تأثيراً ونفاذاً.

ثم أتيح له أن يشاهده عن عيانٍ حين كان يزور أباه، وأن يستمع إلى حواره متحدثاً في العلمِ، ومناقشاً في السياسة، وأن يقرأ مقالاته في الصحف، وآراءه في الكتب، وأن يجلس إلى بعض دروس التفسير في الرواق العباسي، ليجد في دروس الإمام غير ما يعهد في دروس سواه.

أتيح له ذلك كله، فذهب الشيخ محمد عبده بإعجابه في كل منحى من مناحيه، واتقدت في نفسه رغبة في الكتابة الأدبية، والخطابة التوجيهية، فأنشأ مع إخوته صحيفة منزلية قام على تحريرها الطالب الأزهري الناشيء، واشترك مع أخيه (علي)(٢٦) في طباعة النسخ على أوراق الكربون، وفي توزيعها على أفراد العائلة، وانتقل من هذا الحيز الضيق سريعاً إلى ميدان فسيح، حين اتصل بالجرائد اليومية كاتباً قبل أن يبلغ سن العشرين، ثم سَمتْ به همته إلى أن يفصح عن ذات صدره إلى الأستاذ الإمام.

ومن يعرف حياء مصطفى، وشدة حساسيته يقدر شجاعته الأدبية حين خط كتاباً إلى أستاذه يحدثه عن حيرته البالغة، إذ يجد نقصاً في وسائل التعليم الأزهري، وانكماشاً

(٢٦) – علي عبد الرازق(١٨٨٨م- ١٩٦٦م) صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وعضو مجمع اللغة العربية، ولي وزارة الأوقاف المصرية.

مع أساتذة الأزهر عن معالجة شؤون الحياة، وتراجعاً في البلاد الإسلامية عن اتباع منهج الإسلام، مما أوقعه في أسى بالغ لا يعرف السبيل إلى الخلاص منه.

وقد وقع خطاب مصطفى من الأستاذ الإمام موقعاً ساراً بهيجاً، فكتب الرد بنفسه، وقال فيما كتب : (ما سررت بشيء سروري أنك شعرت في حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك، فلله أنت، ولله أبوك، ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالثناء لسقت إليك من المديح ما يملأ عليك الفضاء، ولكنني أكتفي بالإخلاص في الدعاء لك، أن يمتعني الله في نهايتك بما تفرسته في بدايتك).

ولم يكتف المصلح الكبير بالرد التحريري، بل سأل عنه في زيارة خاصة به كانت موضع ارتياح الوالد الكبير، واستمع الأستاذ إلى تلميذه مقدراً موجهاً، ومجلس تربوي كمجلس الإمام من تلميذه، لا بد أن ينفخ فيه من روح اليقظة ما يشعل في صدره جذوات الإصلاح، ويدفعه دفعاً إلى أدواته الأولى من اكتمال التثقيف، وعمق الدراسة، وتفهم روح العصر، و هذا ما كان عن واقع ملموس ظهرت بوادره الناهضة في تفوق مصطفى العلمي، وفي مواصلة الكتابة الصحفية، بل إن روح الإمام، قد أذكت في نفسه بواعث الشعر، فاتجه إلى مديحه

بقصيدة طويلة قال فيها :

أقبلْ عليك تحيّةٌ وسـلامُ ياساهـراً والمسلمون نيام

إنْ يقدروا في الغرب قدرك حقه فلمصرُ أولى منهمُو والشام

كالبدر أنّى سـار يشرق نوره والحقُّ أنَّى حـل فهـو إمام

فيك الرجاء لأمَّةٍ لعبت بما يُلهي الصغار، وجدّت الأيام

لم يُمتَّع الناشئ كثيراً بحياة أستاذه، حيث فوجئ بانتقاله إلى رحمة ربه، فأذكت الحسرة قلبه، ورثاه بقصيدة حارة، تنبئ عن شاعرية رائعة لم تجد سبيلها فيما بعد، فأخذت تترقرق فيما أبدع مصطفى من خواطر أدبية.. هذه الحسرة التي صدقت بواعثها المشجية في نفس صاحبها، فتفجرت عن معانٍ صادقة لا يُلِمُّ بها غير من كان ذا قلب حافظ، وعمل واعٍ، وود بالغ الإخلاص، وحزن لافح الفجيعة مما دفعه أن يقول :

يا دفين القلوب قد هابَك الدهر فكيف اعتدى عليك الحمامُ

كنت طوداً إذا الخطوب ادلهمّت لم تنلْ همّك الخطوبُ الجِسامُ

كنت حيَّ الفؤادِ تصدع بالحـق فتلـوي عـنانها الأوهـامُ

رجلٌ كان حـين يسـلك فـجّاً تتحـامى طـريقه الأيَّـامُ

إنَّ قلباً أصفاك بالـودِّ حـيّاً صـدَّعـته بمـوتك الآلامُ

وأكبر من الرثاءِ الشعري، وأبعد منه أثراً في الحياة أن

يعيش مصطفى ما بقي من عمره متحدثاً عن آراء أستاذه، ومؤرخاً أدواره الإصلاحية، وشارحاً نضاله السياسي والتربوي، ومترجماً آثاره العلمية" (٢٧)

طه حسين في الكُتَّاب:

وقد بدأت حياة كثير من رواد النهضة الأدبية المعاصرة في الكُتَّاب، فسجلوا ذلك فيما سجلوا من ذكرياتهم، فنجد طه حسين – مثلاً – قد تناول تفاصيل كثيرة، ونوادر عجيبة عن شيخه في الكتاب منها قوله في كتابه "الأيام": "كان(سيدنا)قد تعوَّد متى دخل الكتَّاب أن يخلع عباءته.. ويلفها لفاً يجعلها في شكل المخدَّة ويضعها عن يمينه، ثم يخلع نعله ويتربع على دكته، ويشعل سيجارته، ويبدأ في نداء الأسماء" (٢٨)

وعن فقه شيخه في الكُتَّاب يقول ساخراً : "وكان من أذكى الفقهاء، وأشدهم علماً وأقدرهم على التأويل. سأله الصبي ذات يوم: ما معنى قول الله تعالى: "وخلقناكم أطواراً" فأجاب هادئاً مطمئناً: خلقناكم كالثيران لا تعقلون شيئاً" (٢٩) وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى ضخامة جرم الأستاذ الذي يفسر آيات الله الكريمات بجهل مطبق كهذا، حتى يسوِّغ له جهلُه تفسير كلمة (الأطوار) القرآنية

(٢٧) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين – د. محمد رجب البيومي – ج ٢ – ص. ص (٥٠ – ٥٢) دار القلم دمشق – ط١ – ١٩٩٥ م.
(٢٨) – الأيام: طه حسين – ص ٧٤ – مركز الأهرام للترجمة والنشر – ط١ – ١٩٩٢م
(٢٩) – المرجع السابق :ص ٧٤

بـ (الأثـوار) لتقارب الـوزن، إن كان هـذا حدث حقاً، وعظم جرم الـراوي أعنـي (طه حسين) إن كان ذلك لم يحدث، ولا بُدَّ ايضاً من إشارة أخرى، هي أن (طه حسين) قد أورد الآية خطأ في كتابه الأيام فجاءت خطأ هكذا :

(وخلقناكم أطوارا) وصحة الآية (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) وهي الآية الرابعة عشرة من سورة نوح. غفر الله لنا ولهم.

علي الطنطاوي في الكُتَّاب:

وعن شيخ الكتاب يقول الشيخ علي الطنطاوي: "ولقد رأيت أول عهدي بها (أي الكُتَّاب)ما كرَّه إليَّ العلم وأهله، ولولا أن تداركني الله بغير معلمي الأول لما قرأتم لي صفحة كتبتها ولا سمعتم مني حديثاً أو خطاباً ألقيته، بل لما قرأت أنا كتاباً ...

وكلوا بنا معلماً شيخاً كبيراً لا أسميه، فقد ذهب إلى رحمة الله، فكان يحبسنا فيها ونحن أطفال، ولا يدعنا نخرج منها حتى نكتب(ألف باء)كلها في ألواحنا الحجرية أربعاً وعشرين مرة، نكتبها ليراها وليمحوها، ثم نكتبها ليراها وليمحوها ... إلا أن يضطر أحدنا(أو يزعم أنه مضطر)للخروج إلى المرحاض فيسمح له بدقائق، إن زاد

عليها ازدادت عليه ضربات الخيزران. كنا نكذب.. نعم! أفليسوا الذين دفعونا إلى الكذب؟" (٣٠).

وليس غريباً على أدب الطنطاوي وتدينه أن يسكت عن اسم معلمه توقيراً له، ولكن هل يفعل ذلك غير الطنطاوي، لقد سمى كثير من الكتاب معلميهم بأوضح أسمائهم ثم أوسعوهم ذماً، وسنقرأ هنا شيئاً من ذلك.

أحمد السباعي في الكُتَّاب:

ومن أولئك الذين اكتووا بنار معلمي الكُتَّاب الكاتب أحمد السباعي(٣١)، الذي أفاض في كتابه(أيامي)في ذكر حوادث ومواقف شيخ الكُتَّاب ومن ذلك قوله: "كنا في نظر فقيه الكتاب أوزاعاً، تتنوع حقائبنا بتنوع أقيامنا الاجتماعية، شأننا في ذلك شأن الناس في نظر الحياة كما بلوناها فيما بعد.

كان فينا المحظوظ بمركز أبيه، أو غناه، أو نفوذه الشخصي، وكان بيننا(الغلبان)لفقره أو يتمه أو ضعف شخصية أبيه...كنت أنا ونفر من أندادي لا نبتعد كثيراً عن مجموعة(الغلبانين)لأن أولياء أمورنا كانوا من أصحاب البأس الذين وهبوا لحوم أولادهم للفقيه..

---

(٣٠) – الذكريات:الشيخ علي الطنطاوي – ج١ – ص.ص (٣٠-٣١) دار المنارة للنشر والتوزيع – جدة – ط٢ – ١٩٨٩م
(٣١) – أحمد السباعي: (١٩٠٥م – ١٩٨٤م) أحد رواد الأدب و التربية والتعليم والصحافة السعودية، مكي المولد والنشأة والوفاة.

كُنا نُصطفى لكثير من الخدمات؛ فمنا من يكنس الكتَّاب، ومنا من ينظف المرحاض، ومنا من يحمل الماء إلى حيث تمسح الألواح، ومنا من يملأ(شربة)سيدنا ويبادر فيسقيه وعريفه إذا عطشا، ومنا من تخصص للمروحة إذا اشتد الحر علي سيدنا، أو يدلِّك رجليه إذا احتاج الى(التكبيس).

كنت أشارك في بعض هذه الخدمات: أو أكثرها لأن سيدنا كان لا يدين كثيراً بمبدأ التخصص، وكان يميزني ويختصني برعاية بالغة في بعض الأحيان فيسلمني نعاله أمضي بها إلى العم جابر الخراز وأبقى إلى جواره في انتظار الفراغ من تسميره، أو يبعث بي إلى أمه في دارها أحمل إليها(زنبيل المقاضي)وأقضي وقتاً غير يسير عندها أعاونها في غسل(الصحون)وأعنى بطفلته الصغيرة عندها"(٣٢)

وقد تجاوز معلم السباعي هذا طبقية النظرة الى الطبقية في توزيع العقوبات، التي لاتخففها أدلة براءة الغلبانين، كما لا تصيب المحظوظين مهما كانت أدلة إدانتهم بتول السباعي: "قلتُ مرة يا سيدنا هذا ولد العيدروس وولد الصافي يجرون خلفي في الأسواق ويصيحون(دولا مين.. دولا مين.. دولا نصارى والا يهود.. كشوا عليهم بالبارود)قلت له

(١١) أيامي: أحمد السباعي - ص.ص (١٦-١٧) مطبوعات تهامة - ط ١ - ١٩٨٢م

ذلك وأنا أجهش بالبكاء من فرط ما نالني من الألم، فنظر الشيخ إلى دموعي مرة وإلى خصومي - وكانوا من الفريق المحظوظ - أخرى؛ ثم رأى أن من الكياسة أن يتصرف في حزم، وأن ينسى المخطئين وأخطاءهم، وينتزع من هذا الغلبان ما يحقق عليه الجزاء والعقوبة. قال: أعد ما تقول فرحت أعيده في براءة الطفل: (دولا مين.. دولا مين.. دولا نصارى والا يهود.. كشوا عليهم بالبارود) فما ملك أن تصنَّع الغيظ لتبجحي في ترتيل مثل هذا القول على مسامعه، وشرع ينهال على طرف جسدي بخيزرانته اللدنة حتى ترك أثرها واضحاً في كل عضو مني.

ولكنه أبى في النهاية إلا أن يكون منصفاً في حدود ما يفسره من معاني الإنصاف، فقد التفت إلى خصومي بعد أن تركني في شبه غيبوبة، وأهاب بهم: يا واد ما تقعدوا عاقلين أنت وهوه!!" (٣٣)

ثناء على معلم الكتاب:

ومن الثناء على معلمي الكتاب، ما كتبه الأديب / أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري (٣٤)، فقال: "التحقتُ بالدراسة المنهجية وأنا كبير السن، إذ كانت دراستي في الكتاتيب لدى الشيخ عبد العزيز بن حنطي رحمه الله.

---

(٣٣) - المرجع السابق - ص.ص (١٧ - ١٨)

(٣٤) - ابن عقيل الظاهري: (١٣٥٩هـ - ....) عالم بالأدب واللغة، وله في ذلك العديد من الكتب.

لقد كان والداً ومربياً ومعلماً ذا صفاء ونقاء وتواضع مع كرم النسب والأرومة.

كأنه من جيل الصحابة والتابعين رحمنا الله وإياه، وجزاه عنا خيراً، وجمعنا به في دار كرامته" (٣٥).

الشعراوي في الكُتَّاب:

ويبدو التشابه واضحاً بين الكتاتيب في الشام ومصر والحجاز، ولنقرأ كلام الشيخ الشعراوي(٣٦) عن أول يوم له في الكتاب إذ يقول: "قبل أن يأخذني أبي إلى كُتَّاب سيدنا، وأنا صغير.. أعدني لهذا اللقاء.. اشترى لي كمية هدوم كويسة.. وأنا أتساءل ليلة ذهابي للكتاب بيني وبين نفسي: يارب.. ماذا يريد أن يفعل بي أبي؟!.

وفي الصباح، صلينا الفجر وتناولنا الفطور.. وأخذني أبي من يدي، وذهبنا إلى كتاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن.. وسلمني والدي إليه.. وهو يقول له:

(هذا ابني، اكسر له(ضلع).. وأنا أعالجه!).

ثم أشبعه توصيات من هذا النوع..

وسأله سيدنا: ابنك اسمه إيه؟

---

(٣٥) – تباريح التباريح: ابن عقيل الظاهري - ص ١٢٤- دار الصحوة للنشر والتوزيع - ط١- ١٩٩٢م.
(٣٦) – محمد متولي الشعراوي: (١٩١١م - ١٩٩٦م) أديب وشاعر في أول أمره، ثم انصرف إلى الدعوة والتفسير فكان فيهما إماما.

فرد والدي:

- اسمه الرسمي محمد.. لكن ستُّه لأمه أسمته أميناً.. وهي تحفظ القرآن الكريم.. فيصبح له اسمان.

فقمت أنا من مكاني، وقلت لهما:

لا.. هناك اسم ثالث.

فرد الشيخ عبد الرحمن:

ما هو الاسم الثالث يا بني؟

فقاطعته قائلاً:

قل لي ياوله.. مش يا بني.

فسألني: لماذا؟

فقلت لسيدنا: لأن ابن عمتي يناديني دائما يا وله.. ما يقوليش لا يا محمد ولا يا أمين.. يقول ياوله.

ضحك سيدنا الشيخ، وقال:

يا وله دي يعني يا ولد.. وهذه تقال لكل واحد في سنك.

فقلت لسيدنا:

أهم بيقولوا لي كده.. واحد يقول يا محمد.. وواحد يقول يا أمين.. وواحد يقول يا وله.. لخبطوني.. فتعودت على وله" (٣٧)

يوسف القرضاوي في الكُتَّاب:

ومما يدل على أن معلم الكُتَّاب هو الذي يعلو بمنزلة كُتَّابه أو يهبط به ما ذكره الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي عن أول عهده بكُتَّاب القرية إذ جرّب معلمين رفض أحدهما ورضي الآخر فقال: " وفي منطقتنا كان كتاب الشيخ يماني مراد، وكتاب الشيخ حامد أبو زويل. وقد ذهبت أول ما ذهبت إلى كتاب الشيخ يماني بإغراء من أحد أقاربنا الذي كان من تلاميذ هذا الكتاب. ولكني انتسبت إليه يوماً واحداً فقط، ولم أعد إليه بعد ذلك، وذلك لأن الشيخ يماني ضرب التلاميذ جميعاً (لتنشيطهم) وكنت بالطبع من المضروبين. فعز علي أن أضرب ظلماً وبلا سبب، وفي أول قدومي، ورفضت أن أعود إلى هذا الكتاب مرة أخرى.

ويبدو أن كراهية الظلم والنفور منه، والثورة على مرتكبيه –ولو كان ظلماً صغيراً – خصلة قديمة عندي، أو هي فطرة فطرني الله عليها، فلا أحب أن أظلم أو أظلم، وقد تعلمت بعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ بالله أن

(٣٧) – مذكرات إمام الدعاة: إعداد. محمد زايد – ص.ص (٢٥ – ٢٧) دار الشروق – القاهرة – ط٢، ١٩٩٨م

يظلم أو يظلم، أو يجهل أو يجهل عليه.

هذا الظلم الذي وقع عليَّ جعلني أنقطع عن الذهاب إلى أي كُتَّاب مدة من الزمن، حتى حرضتني والدتي -رحمها الله- على الذهاب إلى كُتَّاب الشيخ حامد.. وبالفعل أخذت بيدي في زيارتها لبيت أبيها وسلمتني إلى الشيخ حامد، وقالت له: هو أمانة عندك.. قال لها: إنه ابننا وهو في أعيننا.

وفعلاً استقبلني الشيخ حامد رحمه الله وكنت محظياً عنده وعند والدته رحمها الله. وقد لاحظ الشيخ حامد أني تلميذ مجتهد، فقد لاحظ سرعة حفظي، وسلامة نطقي، كما لاحظ أني أول صبي يحضر إلى الكتاب..

كان الكتاب بمثابة المدرسة الخاصة، ولكن رسومه وأجوره كانت زهيدة بسيطة، فهو يأخذ نصف قرش في يوم الأربعاء من كل أسبوع، وذلك أن الأربعاء يوم سوق القرية. ولكن الشيخ حامد كان يتسامح معي إذا لم أجد نصف القرش، لأمرين: لأنه يعرف أني يتيم، والثاني: لنجابتي بين تلاميذه. وكان هذا من فضل الشيخ حامد ومكارم أخلاقه، حتى إنه أصبح يأخذ مني نصف القرش كل أسبوعين.

كان الشيخ حامد من حفاظ القرآن المحترمين، عزيز

النفس، محتفظاً بكرامته. كان جل حفظة القرآن يقرءون في أيام الأخمسة على المقابر بأجرة زهيدة يدفعها أهل الموتى، كثيراً ما تكون بعض المأكولات، ولكن الشيخ حامداً نزه نفسه عن ذلك.

وكان رجلاً بسيطاً نظيفاً أنيقاً، يلبس جلبابًا وعمامة، ويصلي الصلوات الخمس في المسجد، وهو قريب من البيت والكتاب، وكثيراً ما يؤم الناس إذا تغيب الإمام الراتب.

كان الشيخ حامد حريصاً على أن يعلمني بعض الدقائق التي يراها تفيدني في حفظ القرآن، فأراه مثلاً حينما قرأت عليه قوله تعالى في سورة النحل : (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) (النحل : ٢٩)، قال لي : هذه الآية الوحيدة التي فيها (فلبئس) وكل آيات القرآن (فبئس مثوى).

وكذلك عندما قرأت عليه قوله تعالى في سورة العنكبوت

(فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم) (العنكبوت : ٢٦) قال لي : هذه هي المرة الوحيدة بهذه الصيغة (إنه هو العزيز الحكيم).

ولهذا لم يأخذ النصف الثاني من القرآن معي أكثر من ثلاثة أشهر، إذ كنت قد حفظت من قبل من سورة النجم إلى آخر القرآن.

وانتهى بي المطاف إلى اللوح الأخير في القرآن الكريم، وهو عادة يكون من سورة الضحى إلى سورة الناس، وفي العادة يكتب في لوح كبير، ويقرؤه التلميذ في حفل ختام القرآن.

واستعد الكتاب، واستعد التلاميذ فيه، واستعد الأقارب بإحضار الشربات و(الكراملة)، واستعد الشيخ حامد فدعا بعض أحبابه للحضور، واستعددت أنا لقراءة اللوح الأخير في اليوم المشهود، يوم الختمة الكبيرة.

وكان حفلاً متواضعاً، ولكنه كان جميلاً ورائعاً، كنت أقرأ السورة، وفي ختامها أقول : لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد. وأولاد الكتاب جميعاً يرددون معي هذا الذكر بصوت جماعي مؤثر، من سورة الضحى إلى سورة الناس.

كان عمري في ذلك الحين تسع سنوات وبضعة أشهر، وكنت أصغر طالب حفظ القرآن في القرية، ولولا الأشهر العشرة التي غبتها عن الكتاب لختمت القرآن قبل سنة تقريباً. ولكن كل شيء بأجل مسمى. ومن ذلك اليوم شيخني

الناس، وسموني (الشيخ يوسف) حافظ كتاب الله.

كان من حق الشيخ حامد أن يحصل على جنيه مكافأة ختم القرآن، يأخذها عادة من كل تلميذ يتم حفظ القرآن، ولكنه – رعاية لحالي – اكتفى بنصف جنيه جزاه الله خيراً "(٣٨).

معلمو المدارس النظامية:

كثيراً ما يقع معلمو الكُتَّاب في أخطاء تربوية، ولعل ذلك يرجع إلى افتقار أكثرهم لمعرفة الأساليب التربوية، ولظنِ أكثرهم أن الترهيب هو الوسيلة الوحيدة لتعليم الصغار، بخلاف كثير من معلمي المدارس النظامية في المراحل الأولية، فقد اطلعوا على بعض المعارف التربوية، وحظوا بثناء تلاميذهم، فالدكتور إحسان عباس(٣٩) – مثلاً – يشيد بمعلميه في سنته الدراسية الأولى فيقول: "في المدرسة معلمان أحدهما المعلم الأول – وهو مدير المدرسة – واسمه عبد الرحيم الكرمي، والثاني مساعده، وهو شيخ معمَّم تخرج في جامع الجزار بعكا واسمه محمد حجازي وكل منهما وقت الدوام يدرِّس صفين معاً..

أشهد أنهما كانا مخلصين في مهمتهما، كما كان أكثرنا مخلصاً في حبِ التعلُّم، وكنا نهابهما فلا نحب أن يريانا

(٣٨) – ابن القرية والكتاب د. يوسف القرضاوي – ج١/ص.ص (١١٩ – ١٢٧) بتصرف – مرجع سابق
(٣٩) – د. إحسان عباس: (١٩٢٠م – ٢٠٠٢م) من أبرز محققي التراث العربي، عالم بالأدب واللغة. أصله من فلسطين.

ونحن نلعب، هذا مع أنهما لم يعرفا معنى العقوبة البدنية في التعليم"(٤٠).

ويذكر لأستاذه عبد الرحيم موقفين، أحدهما عزز انتماءه لمدرسته، والثاني حفزه على الاجتهاد في دروسه فيقول: " واقترح الأستاذ عبد الرحيم أن يتعهد كل طالب منا برعاية شجرة، تُضاف إلى اسمه، فهو يرويها بالماء عند حاجتها إليه، وقد كانت هذه العلاقة من أقوى العوامل التي حببت إلينا المدرسة.

وكان عبد الرحيم قد عمد إلى تشجيع الطلاب المجتهدين بتخصيص جوائز، كانت الجائزة شيئاً بسيطاً لا تزيد عن دفتر جميل الغلاف نقي الورق، ولكنها كانت حافزاً" (٤١).

زلة معلم:

وليس خافياً ضرورة إقصاء التلاميذ عما قد يقع بين المعلمين من جفاء أو خلاف، وعدم إقحامهم في ذلك، بأي صورة، وهذا ما لم يتنبه له أحد معلمي الدكتور إحسان عباس، فيرويه بعد ستين سنة من وقوعه فيقول: "وفي أحد الدروس قال لنا الشيخ هل تعرفون من هو المتكبر ؟ فبقينا صامتين ننتظر شرحه، فقال المتكبر رجل يحمل عصا ويلوّح

---

(٤٠) – غربة الراعي: د. إحسان عباس – ص، ص (٣١– ٣٢) دار الشروق، بيروت – ط١ – ١٩٩٦م.
(٤١) – المرجع السابق – ص٣٤

بها وهو يمشي – في خيلاء – على إيقاعها، وفهمنا رسالة الشيخ، وعجبت أنا في سري من هذا اللمز، وأخذت أقدِّر أن الصفاء بين الرجلين ليس تاماً، وأن الظاهر لا ينبي عن الخفايا في النفس" (٤٢)

تشجيع الصغار :

ومن أساليب التشجيع ما ذكره الإمام حسن البنا(٤٣) عن أستاذه في مدرسة المعلمين بالاسكندرية، إذ يقول: "ولا زلت أذكر أن الأستاذ عبد العزيز عطية، وقد كان يدرس لنا التربية العلمية، وقد أجرى لنا اختباراً شهرياً فأعجبته إجابتي فكتب على الورقة أحسنت جداً ولو كان هناك زيادة على النهاية لأعطيتك، وحجز الورقة بيده عند توزيع الأوراق، ثم طلبني وسلمها لي وزودني بكثير من عبارات النصح والتشجيع والحث على القراءة والدرس والمطالعة، واختصني بتصحيح (بروفات) كتابه (المعلم) في التربية الذي كان يُطبع إذ ذاك بمطبعة المستقبل بدمنهور" (٤٤).

ولم يختلف كثيراً منهج الإمام حسن البنا مع تلاميذه، فهذا ما باح به أحد تلاميذه في مرحلة مبكرة، الدكتور علي الراعي، الذي كتب مقالة نُشرت في مجلة العربي الكويتية عام ١٩٩٨م قال فيها: "كان (حسن البنا) رجلاً شديد الذكاء

---

(٤٢) – المرجع السابق – ص ٢٤

(٤٣) – حسن البنا: (١٩٠٦م – ١٩٤٩م) مؤسس جماعة (الإخوان المسلمون) بمصر.

(٤٤) – مذكرات الدعوة والداعية – الإمام حسن البنا – ص ٢٩ – دار الدعوة – الإسكندرية، ط١ – ٢٠٠١م

فصيح العبارة، ساحر الشخصية، وكان حفياً بي بصفة خاصة، لما لمسه فيَّ من حب للغة العربية وإتقانها، أذكر أنه دخل علينا الفصل ذات يومٍ وبدأ بندائه المألوف: أخرجوا كتب المطالعة وأقلام المتابعة، ثم قص علينا قصة الشيخ الفاني المشرف على الهلاك، الذي جمع أولاده، إلى جواره وأمر كلاً منهم أن يكسر عوداً من الخيزران فكسروه جميعاً بلا عناء، ثم أمرهم أن يضموا الأعواد على شكل حزمة، وطلب إليهم أن يحاولوا كسرها فلم ينجح أحد منهم، فتغنى الشيخ قائلاً:

كونوا جميعاً يا بَني إذا اعترى خطبٌ ولا تتفرقوا آحادا

ثم أمرنا الشيخ حسن أن نكتب موضوعاً إنشائياً في هذا المعنى ولما قرأت له ما كتبت اهتز طرباً، فقد قلت: فلما مات الشيخ وواروه التراب... إلخ، فشاقه أن يعرف حدث مثلي هذه الكلمة (واروه).

وكان الشيخ حسن يُسهم في نشاط المدرسة الرياضي، مدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية، وطلب إليه أن يكتب كلمات لنشيد يلقى في حفل آخر العام الرياضي" (٤٥).

(٤٥) – مجلة العربي – العدد ٤٧١ – فبراير ١٩٩٨م – ص.ص (٨٢– ٨٤)

ثناء بالشعر وتأنيب بالشعر:

ويتحدث حسن البنا عن أستاذه محمد زهران صاحب مدرسة الرشاد الدينية فيقول: "رحم الله أستاذنا الشيخ محمد زهـران صاحب مدرسة الرشاد الدينية، الرجل الذكي الألمعي، العالم التقي، الفطن اللقن الظريف، الذي كان بين الناس سراجاً مشرقاً بنور العلم والفضل يضيء في كل مكان... كان يدرس للعامة في المسجد ويفقه السيدات في البيوت. وأنشأ مع ذلك مدرسة الرشاد الدينية في سنة ١٩١٥م تقريباً لتعليم النشء على صورة كتاتيب الإعانة الأهلية.. التي تعتبر دار علم ومعهد تربية على السواء ممتازة في مادتها وطريقتها...".

وكان للرجل أسلوب في التدريس والتربية مؤثر منتج، رغم أنه لم يدرس علوم التربية، ولم يتلق قواعد علم النفس، فكان يعتمد أكثر ما يعتمد على المشاركة الوجدانية بينه وبين تلاميذه، وكان يحاسبهم على تصرفاتهم، حساباً دقيقاً مشرباً بإشعارهم الثقة بهم، والاعتماد عليهم... ولا أزال أذكر بيتاً من الشعر كان مكافأة على إجابة في التطبيق أعجبته، فأمر صاحب الكراسة أن يكتب تحت درجة الموضوع:

حسنٌ أجاب وفي الجواب أجادا   فالله يمنحه رضاً ورشادا

كما أذكر بيتاً آخر أتحف به أحد الزملاء على إجابة لم ترقه، فأمره أن يكتب تحت درجته:

يا غارة الله جدي السير مسرعة   في أخذ هذا الفتى يا غارة الله

ولقد ذهبت مثلاً وأطلقت على هذا الزميل اسماً، فكنا كثيراً ما نناديه إذا أردنا أن نغيظه "يا غارة الله". وإنما كان الأستاذ يوصي صاحب الكراسة بأن يكتب بنفسه ما يمليه عليه رحمه الله، لأنه رحمه الله كان كفيفاً ولكن في بصيرته نور كثير عن المبصرين (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)...

لقد كنا نحب أستاذنا حباً جما رغم ما كان يكلفنا من مرهقات الأعمال، ولعلي أفدت منه رحمه الله مع تلك العاطفة الروحية حب الاطلاع وكثرة القراءة، إذ كثيراً ما كان يصطحبني إلى مكتبته وفيها الكثير من المؤلفات النافعة لأراجع له وأقرأ عليه ما يحتاج إليه من مسائل " (٤٦)

نور البصيرة:

ومن نوادر المعلمين المكفوفين الذين رزقهم الله بصيرة عوضاً عن البصر، ما ذكره الدكتور زاهر الألمعي(٤٧)

---

(٤٦) – مذكرات الدعوة والداعية – الإمام حسن البنا ص.ص(١٠ – ١١) مرجع سابق

(٤٧) – د: زاهر الألمعي: (١٣٥٤هـ –.......) عصامي ألمعي شاعر، ترك الجندية واشتغل بالدراسة حتى أحرز الدكتوراه من الأزهر الشريف، تقلد مناصب عديدة، وأصبح عضوا في مجلس الشورى السعودي.

عن أستاذه في معهد شقراء الشيخ صالح بن غصون إذ يقول: "تتلمذت في معهد شقراء على مجموعة طيبة من الأساتذة الأفاضل وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر فضيلة الشيخ صالح بن علي الغصون: قاضي محكمة شقراء آنذاك والقاضي بهيئة التمييز بالرياض وعضو هيئة كبار العلماء حالياً، وكان يدرس لنا مادة الفقه تعاوناً مع إدارة المعهد، وكان يلزم الطلاب بحفظ المقرر من متن زاد المستقنع، وهو من العلماء الأجلاء في فقه الكتاب والسنة وفي المذاهب الإسلامية، وكان كفيف البصر ولكنه ثاقب البصيرة مرهف الحس.

في إحدى الحصص طلب الشيخ من الطلاب أن يستمع منهم الدرس حفظاً، وبدأ الدور، وكان أحد الزملاء في آخر الفصل ويبدو أنه لم يحفظ ففتح الدرج بخفية.... وأظهر الكتاب ليقرأ فيه فنهره الشيخ بشدة، وقال يا فلان أعد الكتاب إلى مكانه، وقد دهش الطلاب لهذا إذ لم يسمعوا أي حركة عند الطالب وإنما كانت محاولة، وفطن لها الشيخ في حينها" (٤٨).

(٤٨) - رحلة الثلاثين عاماً: د. زاهر الألمعي - ص ص (١٠٧-١٠٨) - ط٢ ـــ ٢٠٠٢م.

أثر المكتبة المدرسية:

وكثيرون هم الذين يعزون الفضل في اتجاههم العلمي والأدبي إلى أساتذتهم في مراحل دراستهم الأولية، ومن أولئك الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي يقول عن أستاذه (حسن جوهر) وأثره في المدرسة الداخلية التي أقام فيها: "أقام في الداخلية مُدرِّس جغرافيا كان قادماً لتوه من بعثة بانجلترة، واسمه حسن جوهر.. كان مدرساً جاداً، واسع الاطلاع، قد صقلت ذهنه إقامته في أنجلترة، وكان يؤثر العلم والتحصيل، ولهذا كان يؤثر الطلاب المجتهدين ويرعاهم رعاية خاصة. ولإيثاره للعلم والتحصيل أنشأ في قاعة صغيرة بالطابق الثاني من البلوك الذي يسكن فيه الطلاب الداخليون مكتبة صغيرة، ولكنها ثمينة لأنها كانت تحتوي على عدد من أمهات كتب الأدب العربي، وأخص بالذكر منها: كتاب (نفح الطيب) للمقري، و(شرح سقط الزند) لأبي العلاء المعري، و(الحماسة) لأبي تمام، والمنتخبات الشعرية التي اختارها سامي البارودي. وقد أقبلت على قراءة هذه الكتب بحماسة شديدة وخصوصاً في شهر رمضان حيث كنتُ أُكِبُّ على القراءة في هذه المكتبة الصغيرة بعد الإفطار مباشرةً وأستمر حتى ساعة السحور. وكان الأستاذ حسن جوهر يجلس معنا

في المكتبة أحياناً، ويسأل عما نقرأ بلطف وتقدير. وليس من شك عندي في أنه كان لهذه المكتبة الصغيرة تأثير عميق في تكويني الأدبي،وبفضلها تدفق العزفُ الشعري عندي في نهاية سن الثالثة عشرة" (٤٩)

تشجيع وتوجيه:

وبهذا القدر من التأثر كان تأثر الدكتور غازي القصيبي(٥٠) بأستاذه في مرحلة الدراسة المبكرة فنقرأ في كتابه (سيرة شعرية) قوله: "لقد كان من أسباب تعلقي بالأدب التشجيع الذي لقيته من أحد مدرسينا في تلك الفترة، الأستاذ / أحمد يتيم رحمه الله، وكان قارئاً ذواقة يحب القصص ويجيد روايتها، وكان المشرف على النشاط المسرحي بالمدرسة، ولا تزال في مكتبتي حتى اللحظة قصص تلقيتها منه كهدايا تشجيعية في مختلف المناسبات" (٥١).

المعلم الشاعر:

وفيما يشبه هذا نجد الشاعر نزار قباني(٥٢) يذكر أثر أستاذه الشاعر خليل مردم بك(٥٣) فيقول: (إنه لمن نعمة الله عليَّ وعلى شعري معاً، أنَّ معلِّم الأدب الأول الذي تتلمذتُ عليه، كان شاعراً من أرق وأعذب شعراء الشام، وهو

---

(٤٩) – سيرة حياتي : عبد الرحمن بدوي – ج١ - ص.ص (٣٢- ٢٤) مرجع سابق
(٥٠) – د. غازي القصيبي: (١٩٤٠م –.......) شاعر وروائي سعودي . اشتغل بعدد من الوزارات. وعمل سفيراً للسعودية في البحرين وبريطانيا.
(٥١) – سيرة شعرية – غازي القصيبي – ج١- ص ١٧ – مطبوعات تهامة – ط٢ - ١٩٨٨م
(٥٢) – نزار قباني: (١٩٢٣م - ١٩٩٨) شاعر دمشقي امتاز بشعره عن المرأة، وشكَّل شعره مدرسة شعرية مميزة.
(٥٣) – خليل مردم بك: (١٨٩٥م – ١٩٥٩م) رئيس المجمع العلمي في دمشق، وأحد شعرائها. ولد ومات بها.

الأستاذ خليل مردم بك.

هذا الرجل ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولى، حين أملى علينا في أول درس من دروس الأدب مثل هذا الكلام المصقول كسبيكة الذهب:

إن التي زعمتْ فؤادكَ ملَّها خُلقت هواكَ كما خُلقتَ هوىً لها

منعتْ تحيَّتَها فقلتُ لصاحبي ما كان أكثرها لنا.. وأقلَّها

واستمر خليل مردم يقطف لنا من شجرة الشعر العربي عشر زهرات جديدة في كل درس من دروسه، حتى كانت ذاكرتنا الشعرية في نهاية العام بستاناً يموج بالأخضر، والأصفر، والأحمر...

لقد جنَّبَنا هذا الشاعر الكبير، بذوقه المترف وإحساسه المرهف، السير على حجارة أكثر الشعر الجاهلي، ونباتاته الصحراوية الشائكة، ودلَّنا على طرقات ظليلة، وواحات في الشعر العربي، أنستنا متاعب الرحلة...

ومن حسن حظي، أنني كنت من بين التلاميذ الذين تعهدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشعرية، وأخذهم معه في نزهاته القمرية، ودلَّهم على الغابات المسحورة التي يسكن فيها الشعر..

إنني أدين لخليل مردم بك، بهذا المخزون الشعري الراقي الذي تركه على طبقات عقلي الباطن وإذا كان الذوق الشعري عجينةً تتشكل بما نراه، ونسمعه، ونقرؤه في طفولتنا.. فإن خليل مردم كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشعر تحت جلدي.. وفي تهيئة الخمائر التي كوّنت خلاياي وأنسجتي الشعرية" (٥٤)

أثر المنتخبات الشعرية:

وهذه القيمة العظيمة والأثر الجميل للمنتخبات الشعرية التي ينتقيها المعلم ذو الحس الأدبي تترك أثرها ولا شك، مع اختلاف منازع المعلمين واتجاهاتهم، ومما يزيد ذلك تأكيداً، ما ذكره الشيخ يوسف القرضاوي في ذكرياته عن أستاذه (سعيد سليمان) الذي كان يحفظهم أبياتاً يختارها، ونلمس تركيزه على المضامين أكثر من الناحية الجمالية لتلك الأبيات، فيقول الدكتور القرضاوي: " وعندما انتقلت من الفرقة الأولى إلى الفرقة الثانية وحصلت على الإجازة لنستمتع بحق اللعب والراحة فيها، وعدنا إلى المدرسة، كان مدرسنا من أبناء القرية، وهو الأستاذ المربي الفاضل : سعيد سليمان ثابت، ابن شيخ معلمي القرية الشيخ سليمان تائب أو ثابت.

---

(٥٤) - قصتي مع الشعر : نزار قباني - ص.ص (٤٦-٤٧) منشورات نزار قباني - بيروت - ط٦ - ١٩٨١م

وكان الأستاذ سعيد أو سعيد أفندي معلماً بفطرته وخبرته، وكانت بيننا وبينه مودة ومحبة، وكان يدرس لنا التاريخ والجغرافيا وعلم (الأشياء) (ويعنى به ما نريد الآن من مادة (العلوم). والصحة والحساب والإملاء والخط والمطالعة والمحفوظات. فلم يكن مدرس مادة، إنما هو مدرس فصل أو صف.

وقد درَّس لنا سعيد أفندي أكثر من سنة، وكان له حس أدبي قوي يتجلى في اختياراته لما نحفظه من قطع أدبية، ومما أذكره مما حفظه لنا شعر للإمام الشافعي :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة   تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه   فكبر عليه أربعاً لوفاته
حياة الفتى – والله– بالعلم والتقى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته" (٥٥)

ويذكر القرضاوي أيضاً معلما آخر امتاز باختياراته الرائعة، وتربية ذائقة طلابه ذلك هو الشيخ فوزي خشبة الذي قال عنه الشيخ القرضاوي: " ومن هؤلاء : الشيخ فوزي خشبة مدرس الأدب العربي المحبوب من طلبته، وذو التأثير القوي فيهم، والذي كان يقارن بأساتذة الأدب العربي في الكليات الجامعية، وكان رجلاً جاداً مهيباً برغم لطفه

(٥٥) – ابن القرية والكتاب : د. يوسف القرضاوي – ج١/ص.ص (١٢٤– ١٢٥)مرجع سابق.

ودماثته، وذا عبارات ساخرة يحفظها طلابه.

وكان يهتم بمادة (الإنشاء) ويدفع طلابه دفعاً إلى إتقان الكتابة، والتفنن فيها، ويعلِّق على بعض الطلاب بعبارات مشجعة حيناً، ولائمة أحياناً، مثل : وضعت رجلك على أول الطريق، فسر على بركة الله، أو : بينك وبين الإنشاء مراحل ومراحل. أو : أنت مشرِّق وموضوعك مغرِّب.. إلخ.

ولم أر الشيخ فوزي خشبة إلا في حصة إضافية، كان مدرسنا فيها غائباً، وكانت حصة محفوظات، ودائماً كانت حصص المحفوظات للراحة، فكيف إذا كانت حصة إضافية ؟!

ولكن الشيخ خشبة رجل ملتزم لا يسمح لنفسه إلا أن يعطي كل شيء حقه، فهذه مسؤولية أمام ربه، وأمام ضميره، ولا ينبغي منه أن يضيع وقت الطلاب سدى، دون أن يستفاد منه في علم أو أدب.

ولهذا بمجرد دخول الفصل مسح السبورة، وبدأ يكتب عليها شعراً لابن زيدون الشاعر الأندلسي الشهير، فيما كان بينه وبين ولادة بنت المستكفي. وطلب منا أن نتابع هذه الأبيات وراءه، ونجتهد في حفظها في أثناء كتابتها. وهي أبيات ثلاثة ما أسرع ما تحفظ، وهي التي تقول:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع	سِــرٌّ إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعاً حظه مني، ولو بُذِلَتْ لي	الحـــياة بحظـى منه لم أبع
ته أحتمل، واستطل أصبر، وعز أهن	وول أقبل، وقل أسمع، ومر أطع

وبعد كتابتها قدمها لنا بحديث عما كان بين ابن زيدون وولادة من حب سارت به الركبان، وما كان بينهما من مودة ووصال حينا، وجفوة وهجران حينا آخر، كما حدثنا عن المعاني التي تحتويها هذه الأبيات القصيرة. ثم سأل : هل منكم من حفظ هذه الأبيات ؟ وذلك بعد أن كان مسحها من السبورة، فرفعت يدي، وسمَّعتُها وهي يسيرة. وسأل عدة طلاب، منهم من حفظ بيتين، ومنهم من حفظ بيتًا واحداً، ولم يجد من حفظ البيت الأخير غيري، وهو الذي يشتمل على اثني عشر فعلاً من بين فعل أمر وفل مضارع.

ثم وجد في الوقت سعة، فأعطانا قطعة أخرى في نفس الموضوع لابن زيدون، وهي التي يقول فيها :

ودع الصبر محب ودعك	ذائع من سره ما ستودعك
يقرع السن على أن لم يكن	زاد في تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وســـنا	رحـــم الله زمانــا أطلعك
إن يطل بعدك ليلي، فلكـم	بت أشكو قصر الليل معــك

وقد حفظت هذه الأبيات كما حفظت تلك، من حصة

الشيخ خشبة الإضافية في مادة (المحفوظات) التي لم يكن أكثر المشايخ يعيرونها أي التفات" (٥٦).

المعلم الشاعر مرة أخرى:

ولنعد للحديث عن الشاعر خليل مردم بك، ولنقرأ ما ذكره الأديب عبد الغني العطري(٥٧) في كتابه(عبقريات من بلادي) إذ قال: "كان درس الأدب عندي أحلى الدروس. كنت أنتظره بفارغ الصبر. وكان أستاذ الأدب الشاعر الكبير خليل مردم بك، أحب أساتيذ المدرسة إليَّ. فعدا حبي وتعلقي بالأدب، كان خليل مردم بك مثلي الأعلى في لباقته، ووقاره واتزانه وأخلاقه الرفيعة، وحضور شخصيته، وسلوكه المثالي مع طلابه" (٥٨)

معلمو اللغة العربية والذائقة الأدبية:

و يشير نزار قباني إلى مدى تأثير معلمي اللغة العربية ودورهم في تشكيل ذائقة تلاميذهم فيقول: "إن مُدرسي اللغة العربية وآدابها يلعبون دوراً خطيراً في فتح شهية الطلاب الأدبية، أو سدِّها، فمدرسٌ يجعل ساعة الأدب ساعة تعذيب واحتضار.. ومُدَرِّسٌ يجعل المادة التي بين يديه حقل جلّنار.. يحول النصوص الجامدة إلى نزهة في ضوء القمر.." (٥٩)

(٥٦) – المرجع السابق ج١/ص.ص (٢٠٨- ٢١٠).
(٥٧) – عبد الغني العطري: (١٩١٩م –........) باحث وأديب سوري.
(٥٨) – عبقريات من بلادي: عبد الغني العطري – ص ٤٥٥ – دار البشائر –ط١ – ١٩٩٦م
(٥٩) – قصتي مع الشعر: نزار قباني – ص ٤٧ – مرجع سابق

بين طه حسين وشيوخه:

وعوداً إلى طه حسين ومعلميه وما أكثر حوادثه التي رواها في كتابه (الأيام) عن معلميه، منذ حداثة سنه في الكُتَّاب كما أشرت، وبعد ذلك في الأزهر، ومن ذلك حديثه عن شيوخ كبار مشهورين، أمثال الشيخ المرصفي(٦٠) والشيخ الخضري(٦١)، والشيخ عبد الله دراز والشيخ محمد المهدي فيقول: "أشيع ذات يوم أن الشيخ المرصفي سيخصص يومين من أيام الأسبوع لقراءة المفصل للزمخشري في النحو. فسعى صاحبنا إلى هذا الدرس الجديد. ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلِف به، وحضر درسه الأدب في أيامه من كل أسبوع، ولزم الشيخ منذ ذلك الوقت.

وكان الصبي قوي الذاكرة، فكان لا يسمع من الشيخ كلمة إلا حفظها، ولا رأياً إلا وعاه، ولا تفسيراً إلا قيده في نفسه.

وكثيراً ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قَدَّم من درسه، فكان صاحبنا يعيد على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيد من آرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشراحها، وتصحيحه لرواية أبي تمام، وإكماله للمقطوعات التي كان أبو تمام يرويها...

(٦٠) - الشيخ المرصفي: (؟ - ١٩٣٩م) أزهري مصري عالم باللغة والأدب.

(٦١) - الشيخ محمد الخضري: (١٨٧٢م - ١٩٢٧م) باحث وخطيب مصري، من العلماء بالشريعة والأدب، وتاريخ الإسلام، وله في ذلك مؤلفات عديدة.

وكان من بين الأساتذة المصريين الشيخ محمد الخضري، "رحمه الله" كان يدرس التاريخ الإسلامي، وقد سحر الفتى بعذوبة صوته وحسن إلقائه وصفاء لهجته، وأحب دروسه في السيرة وفي تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم وفي تاريخ الفتن ودولة بني أمية والصدر الأول من دولة العباسيين. وكان يظنّ أن ليس فوق علم الأستاذ علم، ولكنه لم يكد يسمع دروس التاريخ في أوروبا حتى عرف أن الأستاذ رحمه الله كان ينقل دروسه نقلاً من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التاريخ...

وأخذ الغلام يسمع على الشيخ عبد الله درَّاز شرح ابن عقيل، وبينما الأستاذ وطلابه ماضون في درسهم، راضون عن عملهم، صدر الأمر إلى الأستاذ بالانتقال إلى معهد الإسكندرية.

فمانع في ذلك ما استطاع، ومانع طلابه ما استطاعوا، ولكن المشيخة لم تسمع له ولا لهم، فلم يجد بداً من إنفاذ الأمر. ولم ينسَ الغلام ذلك اليوم الذي ودَّع الأستاذ فيه طلابه، وإنه ليبكي مخلصاً، وإنهم ليبكون مخلصين ويشيعونه باكين إلى باب المسجد...

وكان من الأساتذة المصريين أستاذان أحبهما الفتى

أشد الحب، وعبث بهما أشد العبث، واستغل سذاجتهما ووداعتهما أشنع الاستغلال. كان أحدهما الشيخ محمد المهدي، رحمه الله، أقبل يدرس الأدب العربي بعد حفني ناصف، فكان الفرق بين الأستاذين خطيراً بعيد المدى. كان أحدهما عميق العلم، وكان الآخر أبعد ما يكون عن العمق. كان أحدهما سمحاً لا يتكلف ولا يتصنَّع، وكان الآخر متكلفاً متفاصحاً لا يتكلَّم إلا العربية الفصحى مغرباً فيها يملأ بها فمه، وربما أضحك منها طلابه" (٦٢).

ثناء القرضاوي على الشيخ محمد دراز:

ونجد القرضاوي يسبغ حلل الثناء على أستاذه: الدكتور محمد عبد الله دراز(٦٣)، ولستُ أدري أله صلة بالشيخ عبد الله دراز الذي ذكره آنفاً طه حسين، أم أنه توافق في الاسم، والذكر الحسن؟ ومن كلام الشيخ القرضاوي عنه قوله: " ومن أهم ما استفدته في تخصص التدريس : أن كان من أساتذتنا فيه الشيخ الدكتور العلامة محمد عبد الله دراز، الذي كان يدرسنا علم (الأخلاق).

وكان يتدفق في معارفه كأنما يغرف من بحر، ويبهر سامعه كأن كلامه السحر، ويشرح الدقائق فيجليها، والغوامض فيكشف عن خوافيها، ويبين عن معانيها، لقد كنت أستمع

(٦٢) – الأيام : طه حسين – ص ٢٥٦ –مرجع سابق
(٦٣) – د. محمد عبد الله دراز: (...... – ١٩٧٠م) فقيه متأدب مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر.

إليه، وأنا معجبٌ متابع، ورأيت أنه ينطبق عليه ما كان يكتبه الأولون، عن علمائهم ومؤلفيهم، مثل العالم العلامة، والحبر البحر الفهّامة.

فهذا ما يمكن أن نقوله عن الشيخ، فقد أحاط بعلوم الدين من التفسير والحديث والتوحيد والأصول والفقه، وبعلوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة، وبالأدب وتاريخه، وبالعلوم الإنسانية العصرية، التي درسها في (السوربون) وحصل بها على الدكتوراه، وقدّم فيها أكثر من رسالة، وبخاصة رسالته للدكتوراه (دستور الأخلاق في القرآن الكريم).

كان الشيخ دراز علماً من أعلام الفكر، وإماماً من أئمة الدين، وبحراً من بحور العلم والثقافة، جمع حقاً بين الأصالة والمعاصرة، فإن شئت نسبته إلى جامع (الأزهر) فهو ابنه البار، وتكوينه الأزهري قويٌّ متين، وإن شئت نسبته إلى جامعة (السوربون) فهو من خريجيها الذين تعتز بهم، وتفخر بانتمائهم إليها، وهو أحد رجال الفلسفة والأخلاق المعدودين في عالمنا العربي والإسلامي" (٦٤)

(٦٤) - ابن القرية والكتاب – د. يوسف القرضاوي ، ج٢ ص.ص(١٦-١٧)

طه حسين ومرجع الضمير:

وعوداً إلى طه حسين وشيوخه فقد نقم طه حسين على أكثرهم وشنع عليهم كما شنعوا عليه، ومن قصصه مع أولئك، قصته مع الشيخ الذي تولى تدريسهم مكان الشيخ عبد الله دراز، ومن قوله فيه: " أقيم مقام الشيخ عبد الله دراز شيخٌ آخر ضرير، وكان مشهوراً بالذكاء الحاد والتفوق الظاهر والنبوغ الممتاز، وكان لا يُذكر إلا أثنى عليه ذاكروه والسامعون لذكره بهذه الخصال.

أقبل هذا الشيخ، فأخذ الدرس من حيث تركه عبد الله دراز، وكانت حلقة الشيخ عبد الله دراز عظيمة تملأ رقعتها القبة من مسجد محمد بك أبي الذهب. فلما خلفه هذا الشيخ ازدادت هذه الحلقة ضخامة واتساعاً حتى اكتظ بها المكان. وألقى الشيخ درسه الأول فرضي عنه الطلاب، ولكنهم لم يجدوا عنده وداعة أستاذهم القديم ولا عذوبة صوته. ثم ألقى درسه الثاني والثالث، وإذا الطلاب ينكرون منه رضاه عن نفسه وإعجابه بها، وثقته بما كان يقول، وغضبه الحاد من مقاطعيه. ولم يكد يتقدم في درسه حتى كانت بينه وبين صاحبنا قصة صرفت الغلام عن النحو صرفاً.. كان الشيخ يفسر قول تأبط شراً:

فأُبتُ إلى فهمٍ وما كدت آئباً

وكم مثها فارقتها وهي تصفرُ

فلما وصل إلى قوله(تصفرُ قال: إن العرب كانت إذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة وضعوا أصابعهم في أفواههم ونفخوا فيها، فكان لها صفير يُسمع.

قال الغلام للشيخ: وإن فما مرجع الضمير في قوله(وهي تصفرُ؟)وفي قوله وكم مثلها فارقتها؟)قال الشيخ: مرجعه(فهم)أيها الغبي. قال الغلام: فإنه قد عاد إلى فهم والبيت لا يستقيم على هذا التفسير قال:فإنك وقح وقد كان يكفي أن تكون غبياً. قال الغلام: ولكن هذا لا يدل على مرجع الضمير. فسكت الشيخ لحظة ثم قال: "انصرفوا فلن أستطيع أن أقرأ وفيكم هذا الوقح" (٦٥).

المعلم الذي طرد القرضاوي من الفصل:

ويشبه هذا الموقفَ موقفُ الشيخ القرضاوي وهو يعترض على أستاذ الفقه الحنفي، فيطرده من الفصل، وإليكم الحكاية بقلم الشيخ القرضاوي: " كان يدرسني في السنة الخامسة الفقه الحنفي مدرس كفء وإن كان مكفوف البصر، هو الشيخ محمود الدفتار، وهو من آل الدفتار، وهم أسرة معروفة بالانتساب إلى المذهب الحنفي، والاعتزاز به،

(٦٥) – الأيام: طه حسين – ص. ص (٢٥٨-٢٦٠) مرجع سابق

فأحدهم يقال له : أبو حنيفة، والثاني : أبو يوسف، والثالث : محمد.

كما كان لهم نزعة صوفية ظاهرة تتمثل في الاعتقاد في الأولياء، والمبالغة في إثبات كراماتهم وخوارقهم. وقد كان الذي يدرسنا مادة (العروض والقافية) في السنة الأولى الثانوية، هو الشيخ أمين الدفتار، وكان يختار أمثلته من شعر الصوفية الذي ينزع هذا المنزع، فهو يمثل لنا عن بحر (الكامل) بقول الشاعر :

لذ بالمقام الأحمدي وقل : مدد   يا سيد الأقطاب يا نعم السند !

وكان لا يقبل أي مناقشة حول هذه القضية، وكان يذهب كل ليلة ليجلس في مقام السيد ما بين المغرب والعشاء، لا يكاد ينقطع عن ذلك إلا لسبب.

وكذلك كان الشيخ محمود من أحباب السيد البدوي والمدافعين عنه. وقد اجترأت مرة فناقشته في أن الأضرحة التي تقام للأولياء ويدفنون فيها، ليست على منهج السنة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة إلى القبور، والصلاة عليها، كما نهى عن إضاءتها وإيقاد السرج عليها، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد. ودخلت مع الشيخ في مناقشة، وقال لي : أيهما أولى : أن تصلي قرب الميضأة

أم تصلي بجوار الضريح ؟ قلت له بصريح العبارة : أن أصلي قرب الميضأة فنهرني بشدة، وقال : أنت وهابي تبغض الأولياء. قلت له : أنا أقول ما درسته في هذا المعهد في (صفوة صحيح البخاري) فأسكتني وأغلق المناقشة.

وفي مرة أخرى، كان الشيخ يشرح لنا (باب الأضحية) في الفقه، وما لها من فضل أغفله أكثر الناس، أو قَلَّتْ قدرتُهم عن القيام به، وهنا تدخلتُ وقلت له : يا فضيلة الشيخ، إن كثيراً من الناس يذبحون بالفعل، ولكنهم يذبحون للبدعة، ولا يذبحون للسنة. قال لي : كيف يذبحون للبدعة؟ قلتُ : عندنا في قريتنا وفي غيرها من القرى أناس كثيرون ينذرون خرافهم لتذبح في مولد السيد، وهذه بدعة ولا يذبحون يوم عيد الأضحى، وهي سنة. ولو أن العلماء قاموا بواجبهم، ونبهوا الناس على ذلك، لأحيَينا السنة وأمتنا البدعة. فغضب الشيخ، وقال لي : اخرج من الفصل" (٦٦).

اسكتْ يا أعمى:

ويروي طه حسين قصة أخرى مع أحد شيوخه فيقول: "غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر؛ فمنع الشيخ من إلقاء دروسه، ورأى الناس أن في هذا المنع ظلماً للشيخ وعدواناً على حقوق الأزهر، ولكنهم لم يصنعوا

(٦٦) - ابن القرية والكتاب : د. يوسف القرضاوي - ج١ /ص.ص (٢٠١- ٢٠٢) مرجع سابق

شيئاً، وكان الأزهريون أشدهم فتوراً وخضوعاً، ولكن صديقاً من أصدقاء الفتى أقبل عليه ذات يوم فقال له: ألستَ ترى فيما حلَّ بشيخنا ظلماً وعدواناً؟ قال الفتى: بلى وأي ظلم وأي عدوان! قال له الصديق: ألا تشارك في الاحتجاج على هذا الظلم؟ قال الفتى: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال الصديق: نجمع نفراً من أصدقائنا الذين كانوا يسمعون دروس الشيخ ونسعى إليه نتمنى عليه أن يمضي في إلقاء دروسه علينا في بيته، فإذا قبل انتفعنا بالدرس وأعلنا ذلك في الصحف فعرف الظالمون للأزهر أن في الأزهريين من لا يقرون الظلم ولا يُذعنون له. قال الفتى: هذا حسن.

واجتمع نفرٌ من طلاب الشيخ فسعوا إليه بما أرادوا، وأجابهم إلى ما طلبوا فأعلنوا ذلك في الصحف، وأعلنوا أن الشيخ سيقرأ لهم (سُلَّم العلوم) في المنطق (ومسلم الثبوت) في الأصول، يقسم الأسبوع بين هذين الكتابين.

وبدأ الشيخ دروسه في بيته، وكثر الطلاب المقبلون على هذه الدروس حين علموا بها، ورضي هؤلاء الشباب عن أنفسهم وعن شجاعتهم، وعاد إلى الفتى قليل من الأمل.

ولكنه في ذات يوم جادل الشيخ في بعض ما كان يقول. فلما طال الجدل غضب الشيخ وقال للفتى في حدة

ساخرة: " اسكت يا أعمى ما أنت وذاك". فغضب الفتى وأجاب الشيخ في حدة: "إن طول اللسان لم يثبت قط حقاً ولم يمح باطلاً". فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة، ثم قال الشيخ لطلابه: "انصرفوا اليوم فهذا يكفي".

ولم يعد الفتى منذ ذلك اليوم إلى دروس الشيخ، بل جهل كل ما كان من أمرها" (٦٧)

أقبل يا أعمى.. انصرف يا أعمى:

وما أقسى تلك الكلمات التي تَصِمُ التلميذ بعيب لا يد له فيه، كما حدث للدكتور طه حسين أيضاً مع شيخ آخر وصفه بالأعمى، فروى تلك القصة في كتابه الأيام فقال: "سعى [يعني نفسه] إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة، وامتلأ قلبه حسرة وألماً، وثارت في نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط؛ فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذي كان أمامهما، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ موقع: "أقبل يا أعمى".

ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه في غير رفق وقاده إلى

(٦٧) - الأيام : طه حسين - ص. ص (٢٧٢ - ٢٧٥) مرجع سابق

المتحنين في غير كلام، لما صدَّق أن هذه الدعوة قد سبقت إليه، فقد كان تعود من أهله كثيراً من الرفق به وتجنباً لذكر هذه الآفة بمحضره. وكان يُقدِّر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يُشغل قط عن ذكرها. ومع ذلك فقد جلس أمام المتحنين وطُلب إليه أن يقرأ سورة الكهف فلم يكد يمضي في الآيات الأولى منها حتى طُلب منه أن يقرأ سورة العنكبوت، فلم يكد يمضي في الآيات الأولى منها حتى قال له أحد المتحنين: "انصرف يا أعمى، فتح الله عليك" (٦٨)

الشيخ الذي ملأ الجامعة فكاهة:

ويتحدث طه حسين أيضاً عن شيخه طنطاوي جوهري فيقول: "وكان الأستاذ الآخر الذي ملأ الجامعة فكاهة ودعابة، وملأ الطلاب عبثاً به واجتراءً عليه، وملأ بطون الطلاب من طعامه هو الشيخ طنطاوي جوهري، رحمه الله.

كان يدرس الفلسفة الإسلامية.. وكان يتكلَّم كثيراً ولا يقول شيئاً، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق أكثر الكلمات جرياناً على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد ألفها فأسرف في المد، وربما أخذه شيء من الذهول وهو يمد هذه

(٦٨) -المرجع السابق: ص.ص(٢٢٤-٢٢٥)

الألف فيغرق الطلاب في ضحك يخافت به بعضهم ويجهر به بعضهم الآخر؛ ويفيق الأستاذ من ذهوله على هذا الضحك، فيلوم الطلاب لا على أنهم يضحكون، بل على أنهم لا يشاركونه في الإعجاب بجمال الطبيعة وجلال الكون، وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل، ويمد ياء النيل فيسرف في مدها ويأخذه ذهول يجرُّ الطلابَ إلى ضحكٍ متصلٍ" (٦٩).

معلمان من الانجليز:

ويتحدَّث الدكتور عبد الرحمن بدوي عن اثنين من معلميه الإنجليز فيقول: "كان يقوم بتدريس اللغة الإنجليزية مدرسون إنجليز غالباً؛ واذكر منهم اثنين ممتازين حريصين على التعليم، هما: (ماك ناني MAC NANY) و(هنترHUNTER)، كان أولهما جاداً كل الجد، لا أذكر أنه ابتسم ولو مرة واحدة، ناهيك أن يضحك، وكان حريصاً على تصحيح الأخطاء النحوية واللغوية في الحال عندما ينطق أي طالب بأي خطأ، ولو كان الخطأ شائعاً. أذكر مثلاً أنني حين ينتهي الدرس ويستمر هو في التدريس أقول: TIME IS OVER فيصحح عبارتي في الحال قائلاً: TIME IS UP – وهكذا باستمرار ... أما هنتر HUNTER

(٦٩) – المرجع السابق: ص. ص (٢٥٨-٢٥٩)

فدرَّس لي في السنة الخامسة. ولما رأى تفوقي في اللغة الإنجليزية وقراءاتي العديدة في آدابها، توثقت العلاقة بينه وبيني، فكان يمدني بالملحق الأدبي لجريدة (التايمز) في كل أسبوع، وأحياناً بالأعداد التي يفرغ من قراءتها من صحيفة (التايمز) اليومية. كما كان يعيرني بعض الكتب الأدبية والتاريخية" (٧٠)

الأستاذ المهيب:

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي عن أستاذ اللغة العربية في المدرسة السعيدية: "كان الشيخ عثمان أبو النصر مدرساً مهيب الطلعة بجبته وقفطانه وعمامته، وكان جاداً حريصاً على كرامته، لا يتبذَّل ولا يترخص مع التلاميذ. وكان في العلم حسناً، وإن لم نفهم شيئاً. وقد تتلمذت عليه في السنة الثانية، ولاجتهادي وتفوقي في اللغة العربية وآدابها كان يؤثرني بتقديره.

ولم أره بعد ذلك إلا في الامتحان الشفوي للغة العربية في البكالوريا، فعرفني على الفور وطلب مني أن أنشد قصيدة من شعري أنا، بدلاً من شعر غيري الذي كان مطلوباً من سائر الطلاب، وأعتقد أنه أعطاني الدرجة النهائية في شفوي اللغة العربية..." (٧١)

(٧٠) – سيرة حياتي: عبد الرحمن بدوي – ج١ ص ص (٣٩-٤٠) – مرجع سابق
(٧١) – المرجع السابق: ج١ – ص ٤١

بنت الشاطئ في قاعة الامتحان:

ويذكرني هذا بالامتحان الذي أجري للدكتورة بنت الشاطئ(٧٢)، لتتم دراستها في معهد المعلمات، فأدهشت الممتحنين بحفظها، وزادت دهشتهم بأن تنشد من شعرها، فنصحوها أن تعدل عن طريقها إلى طريق أشق وأطول لكن ثمرته أينع، وهي تحكي لنا تلك الحادثة في كتابها (على الجسر) فتقول: ".. يوم أخذت مكاني في جانب من قاعة الامتحان الشفهي لشهادة المعلمات، أنتظر دوري لأؤديه بعد الطالبات الرسميات.

وكان الأساتذة الممتحنون قد ضاقوا بتعثرهن في تلاوة السور القرآنية والنصوص الشعرية المقررة، فلما جاء دوري وتلوت مجودة ما اختاروا لي من سورتي النساء والنور، سُئلت عما أحفظ من النصوص الشعرية، فكان جوابي أن سألت: من أي عصر؟

وعجب الممتحنون لسؤالي، ثم طلبوا نصاً من العصر الجاهلي فأنشدتهم أبياتاً من معلقة طرفة بن العبد، ومرثية لمهلهل بن ربيعة التغلبي في أخيه كليب.

قالوا: أسمعينا شيئاً من شعر صدر الإسلام.

(٧٢) - عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: (١٩١٣م – ١٩٩٨م) عالمة باللغة والأدب والتفسير، لها كتابات في الشعر والقصة القصيرة، ولها كتابات عن المرأة في بيت النبوة.

فبادرت أنشد لامية كعب بن زهير (بانت سعادٌ).

ثم ما زالوا ينتقلون بي من عصر إلى عصر وهم في دهشة من حفظي، حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث فاجأتهم بسؤالي:

- من شعري أم من شعر سواي؟

ولم ينسني مر السنين، ما بدا عليهم من عجب، وقد قال أحدهم:

- إن كنتِ شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدكِ.

وأنشدتهم قصيدة لي " في الحنين إلى دمياط " مطلعها:

دمياط حبُّكِ حركتْ أشجانَه آلامُ قلبٍ في الغرامِ مصفَّدٌ

ثم أتبعتها أخرى :صورة شعرية لزوجة صياد خرج إلى البحيرة في ليل عاصف..

ولم يبق لديهم ما يمتحنونني فيه، فأقبلوا عليَّ يسألونني عن وجهتي في التعليم بعد نيل هذه الشهادة لكفاءة المعلمات، وكان أقصى ما يقف عنده الشوط الذي سرت فيه، إتمام

الدراسة " بالقسم الإضافي في معلمات بولاق" ومدته سنتان تتخرج بعده الطالبات معلمات في المدارس الابتدائية أو الأولية الراقية، على حين لا يتاح لحاملات شهادة الكفاءة إلا التعليم في المدارس الأولية والإلزامية..

وأجبت على سؤال السادة الممتحنين:

- في نيتي أن أعكف على تحصيل المواد المقررة في القسم الإضافي، ثم أتقدم من المنزل لأداء امتحان النهائي..

فأنكروا ما سمعوا من جوابي، وزينوا لي أن أعدل عن هذا الطريق القريب، إلى طريق الجامعة ففيها وحدها المجال الرحب الذي يستحق أن أتعلق به وأسعى إليه" (٧٣)

ووجدتْ نصيحة الممتحنين في بنت الشاطئ أذناً واعية، فأعادت ترتيب خطتها لتلتحق بالجامعة، على أن ذلك كلفها مشقةً وعنتًا ومعارضة من والدها الذي كان يرى الجامعة مصدراً للزيغ والضلال، وهناك التقت أستاذها أمين الخولي(٧٤)، الذي ستأتي قصة لقائها به في صفحات تالية، ومن الجامعة انطلقت بنت الشاطئ لتكون إحدى أبرز الشخصيات العلمية النسائية في قرن العشرين.

---

(٧٣) – علي الجسر: عائشة بنت الشاطئ - ص.ص (٦٢- ٦٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب - مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢م

(٧٤) – أمين الخولي:(١٨٩٥م – ١٩٦٦م) من أعضاء المجمع اللغوي بمصر، عالم في اللغة والتفسير.

مقارنـــــة:

ويتحدَّث الدكتور عبد الرحمن بدوي عن بعض ناظري مدرسة السعيدية، التي درس بها المرحلة الابتدائية، ويعقد المقارنة بينهم فيقول: "الناظر – الأستاذ عبد اللطيف محمود – كان أستاذاً فاضلاً عاقلاً ذا روية ونزاهة، يؤثر المجتهدين ويحرص على العلم، بعكس سلفيه: محمد رفعت ومحمد فهيم.. اللذين لم يكن لهما من هم واهتمام غير الألعاب الرياضية والفوز في مباريات كرة القدم!" (٧٥)

معلمو الأمس ومعلمو اليوم:

ويؤكد كثير من الكتاب أن معلمي الأمس كانوا أكثر عمقاً وأشد إخلاصاً، وأبلغ أثراً من معلمي اليوم، ومن أولئك الشيخ علي الطنطاوي الذي يقول: "إذا كان كثيرٌ من المعلمين يعملون ليأخذوا الراتب، وكثير من الطلاب يقرؤون ليحملوا الشهادة، وكان في المدرسين المهمِل المسيِّب، وكان فيهم زائغ القلب، فاسد العقيدة، فقد كان أكثر معلمينا، يعلموننا ابتغاء ثواب الله، وحباً بنشر العلم، وكنا (أو كان أكثرنا) نتعلم حباً بتحصيل العلم، ورغبة في الأجر من الله.

وكانوا كالآباء لنا، يهتمون بدنيانا، وأخرانا.

---

(٧٥) سيرة حياتي: عبد الرحمن بدوي - ج١ - ص.ص (٤١- ٤٢) مرجع سابق

فهل تستكثرون عليَّ أن أنضح بالدمع قبور رجال ملؤوا قلبي بالعاطفة التي ينبع منها الدمع" (٧٦)

والطنطاوي في الجملة يرى أن أولئك المعلمين طراز لم يعد له مثيل فيقول: "لقد كثر اليوم الأساتذة من حملة الشهادات، وأصحاب الدكتورات ولكن ذلك الطراز لم يعد له وجود." (٧٧)

ويقول الروائي نجيب محفوظ: "أحب أن أتوقف أولاً عند ملاحظة جديرة بالتسجيل، وهي أن ذلك الجيل من الأساتذة لا يمكن أن يتكرر في ظل ما نسمع عنه الآن من المستوى الذي انحدر إليه الجيل الحالي. كان ذلك الجيل من الأساتذة متمكناً من عمله، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والموهبة، وانعكس ذلك بالطبع علينا نحن تلاميذ ذلك الزمن" (٧٨).

والحق معهم في التفريق بين ذلك الجيل وجيل اليوم، إلا أن هذا التحول جاء نتيجة لعوامل عديدة وتحولات كثيرة، لا يتحمَّل المعلم مسؤوليتها جميعاً، وإن أسهم فيها، وإن كانت رسالته وطلابه أول ضحاياها، وأبرز تلك العوامل: التغير في مفهوم التعليم، فهو اليوم غيره منذ نصف قرن، فقد أضحى عند كثير من المعلمين لا يعدو بابَ رزق للمعلم، وبابَ

(٧٦) – الذكريات، الشيخ علي الطنطاوي – ج١ – ص١٢٤ – مرجع سابق

(٧٧) – الذكريات، الشيخ علي الطنطاوي – ج١ – ص١١٨ – مرجع سابق

(٧٨) – نجيب محفوظ : صفحات من مذكرات وأضواء جديدة على أدبه وحياته، إعداد رجاء النقاش – ص٦١ – مرجع سابق

شهادة للتلميذ، وأشهد مع ذلك أن في المعلمين بقيةً باقيةً من الصادقين، المخلصين لرسالتهم، وإن قَلَّتْ وندرتْ فلم تُعْدَم يوماً.

معلمو الطنطاوي بقلمه:

وهـذه لفتات مما كتب الشيخ الطنطاوي عن معلميه، أجتزئ منها مقاطع إذ قد أفـرد مقالات وصفحات لأكثر معلميه، مما يصعب استيعابه هنا، ومن ذلك قوله: "كان أساتذتنا في مكتب عنبر أصنافاً ...أما مدرسو العربية فكانوا أئمتها في البلد، وكانـوا المرجع فيها: الشيخ عبد الرحمن سلام الخطيب الشاعر، والشيخ المبارك اللغوي الراوية، والشيخ سليم الجندي أستاذ اللغة والنحو والصرف والعَرُوض.

والشيخ الداوودي، ولم نقرأ عليه، ولكن عرفنا من تلاميذه أنه كان يشرح الدرس على طريقة العلماء الأزهريين، في لطف ظاهر وخلق عظيم، وقلب رقيق، وكان شيخاً كبير السن، مريض الجسم، يستنفد الدرس قوّته، فيخرج من غرفة التدريس، فيستلقي على الأريكة يستريح...ولما توفي سنة ١٩٢٦ نظم رفيقنا الشاعر (أنور العطار) (٧٩) قصيدة في رثائه ألقيتها أنا على قبره، في كلمة تأبين لي..

(٧٩) – أنور العطار: (١٩٠٨م – ١٩٧٢م) شاعر رقيق من أدباء المدرسين، دمشقي المولد والوفاة.

و الشيخ سعيد الباني، وهو عالم لم يعرف الناس قدره، وكثير منهم نسي اسمه، مع أني أكاد أفضّله في مصنفاته على علماء عصره حتى الشيخ جمال الدين القاسمي، على كبر أقدارهم، وسمو منازلهم، وكثرة مؤلفاتهم، التي ليس فيها (غالباً) إلا نقل أقوال العلماء وجمعها، أما الشيخ سعيد فهو يقرأ النقول ويفهمها ويهضمها (كما يقولون) ثم يعطيك خلاصة عنها مكتوبة بقلمه هو، ممزوجة برأيه فيها، مع إيراد ما يناسبها، وعندي الآن كتابان له" (٨٠)

وتحدّث عن الشاعر شفيق جبري (٨١) فقال: "أما الأستاذ شفيق جبري، فكان يُعِدُّ محاضرة واحدة في الأسبوع، المحاضرة في نحو ست صفحات فقط من صفحات الكتاب، يقرؤها من الورق إلقاءً متئداً جميلاً، لا يزيد على المكتوب شيئاً، ولا يفتح صدره لمناقشة، وأظنه لا يقدر عليها، وهو شاعر في الطبقة الأولى من شعراء هذا العصر.. كنا نقدم عليه خير الدين الزركلي، ولكن الزركلي تدفق شعره غزيراً فياضاً نحو عشر سنين ثم غاض، وجبري استمر، وهو أديب ولكن حظه من الاطلاع على الأدب العربي القديم (الذي يسمونه اليوم بأدب التراث) حظ قليل، مطلع على الأدب الفرنسي أو على جانب منه، لم يحط به كله ولم يعمق النظر

(٨٠) - الذكريات: الشيخ علي الطنطاوي - ج٢ - ص٢٠٠ - مرجع سابق

(٨١) - شفيق جبري: (١٨٩٧م - ١٩٨٠م) أحد مقدمي شعراء عصره، مولده ووفاته بدمشق.

فيه، ولكنه فهم الجانب الذي اطلع عليه فهماً تاماً" (٨٢)

ويتحدث عن أستاذه عبد الرحمن السفرجلاني ابن أستاذه عيد السرفجلاني فيقول: "وكان لشيخنا الشيخ عبد السفرجلاني ولد هو أستاذنا عبد الرحمن السفرجلاني. كان من أقدم المعلمين في دمشق يدرّس الرياضيات، ثم صار المدير الثاني (وكيل المدرسة) في مكتب عنبر. وقد اخترع لنا، لما كان مديرنا فيه، مكافآت مطبوعة مذهبة مكتوبة بالخط الكوفي والخط الفارسي والثلث، سماها الاستحسان والتقدير والامتياز، وجعلها درجات ولا تزال عندي طائفة منها، لو أنها وضعت في إطار وعلقت على جدار لكانت لوحة فنية، يريد أن يحفز بها الطلاب إلى الجد والاجتهاد" (٨٣)

المعلم بين يدي تلميذه القاضي:

ويحكي لنا الطنطاوي حكايته مع مدير المدرسة السلطانية الأستاذ سعيد مراد وقد تبدلت بهما الأيام فيقول: "كان للأستاذ سعيد مراد يومئذ هيبة في نفوسنا، بل رهبة، لعلو منزلته ولأنه المدير الأول، الذي يأمر وينهى هذه المجموعة الكبيرة من الأساتذة، وهذا الجيش المحشود من الطلاب . . .

ومرت الأيام الطويلة وصرت قاضي دمشق، وكنت يوماً

(٨٢) - الذكريات: الشيخ علي الطنطاوي - ج٢ - ص٢٠٢ - مرجع سابق
(٨٣) - رجال من التاريخ: علي الطنطاوي - ص٤٥٨ - دار المنارة، جدة - ط٨ - ١٩٩٠م

على قوس المحكمة أنظر في قضايا الناس، والقاعة الكبيرة ممتلئة بالمحامين والمتقاضين والشهود والموظفين، وكلهم مستعجل يريد أن تُرى قضيته وينصرف، فنظرتُ من الشباك، فرأيت في ساحة المحكمة رجلاً كبير السن، قائماً على قدميه، قد أحنى الدهرُ ظهرَه، فعرفت فيه مديرنا الأستاذ سعيد مراد.

فقلت للإخوان: أنا مضطر لرفع الجلسة عشر دقائق، ونزلت من فوق القوس، وخرجت من القاعة، وهم يحسبون أنني إنما خرجت لحاجة طبيعية عارضة، لا بد منها... فرأوني قد ذهبت إلى هذا الشيخ، فقبَّلت يده وسألته أن يدخل معي لأقضي حاجته، إن كانت له حاجة. فدخل معي فأصعدته القوس إلى جانبي، وقلت للحاضرين: هذا شيخ المعلمين، وهذا أستاذي علَّمني كما علَّم الافاً وآلافاً من أبناء هذه الأمة، أفلا ترون من حقه عليَّ وعليكم وعلى البلد أن أستمهلكم لأنظر لما جاء من أجله؟.

قالوا: نعم. وظهر الرضا على وجوههم، وبان أن في هذه الأمة لخيراً كثيراً.وأن الكرم والنبل لا يزال في أعماق قلوبها، ولكن ربما غطَّت عليه المطامع أو هموم الأيام.

ونظرت في حاجته وقضيتها، فسألني: من أنت؟ قلتُ:

انظر إليَّ لعلَّك تعرفني فنظر ولكن بصره قد ضعف فلم يتبيني، فقلت له: أنا فلان. فذكرني ودعا لي وترحَّم على أبي. وأوصلته إلى باب القاعة حتى خرج، ولا يزال منظر دموعه وهي تقطر من لحيته التي كانت يوماً شقراء فصارت بيضاء مثل الثلج. منظراً لست أنساه وأحمد الله عليه" (٨٤).

المعلم الموهوب:

وعن مواهب معلمه (حسني كنعان) يقول الطنطاوي: "وكان من معلمينا فيها شاب (أعني أنه كان يومئذ شاباً) من نابلس، هو أول من علمني الإنشاء العربي، كان يأخذ مقالات المنفلوطي، فيجعلها بحيث نفهمها ثم يكلفنا أن نكتب مثلها، وكانت مزيته الأولى صوته، فما عرفت على ما سمعت من الأصوات، ما هو أحلى منه وأطرب، وقد أنشد يوماً في اجتماع عام نشيد (ويلي على أوطاني من غارة العدوان) أمام الشريف فيصل، فأعجب به فجعله مدرس الموسيقى في السلطانية الأولى، ثم صار مدرساً سياراً لها، يدور على المدارس، فيكون يوم وصوله فرحة للمدرسة، وكان ممن ينظم الأناشيد العربية، أو يترجمها عن التركية ويلبسها النغمة الأصلية، وهو الأستاذ حسني كنعان" (٨٥).

---

(٨٤) - المرجع السابق: ص ٤٦٢

(٨٥) - الذكريات: الشيخ علي الطنطاوي - ج١ - ص٥٤ - مرجع سابق

معلم الشام:

ويتحدَّث عن الشيخ عيد السفرجلاني فيقول: "أما الشيخ عيد فهو معلِّم الشام حقيقة لا مجازاً، ولقد كتبت عنه كثيراً، وفي كتبي كلام طويل عنه، فقد لبث يعلِّم أكثر من ست وستين سنة، ولقد كان أبي تلميذاً لديه، ثم صار معلماً عنده، وكنت أنا تلميذاً لديه، ثم صرت معلماً عنده، ولقد رأيت في سجلات مدرسته اسم التلميذ ثم اسم ابنه ثم اسم حفيده، ثم اسم ابن الحفيد، على أربعة بطون... في هذه المدرسة بدأ التأثير الباقي في نفسي للأساتذة الذين حضرت دروسهم. أما الشيخ عيد فكان له أبقى الأثر فيها، وما كان يعلمنا ولا يلقي علينا دروساً بل كان يلقي الكلمة، فيصيب حبات القلوب منا، وأنا قد نسيت أكثر ما سمعت من دروس المدرسة ولكن أمثال هذه الكلمات التي تأتي في موضعها وتقترن بمناسبتها لا تزال في أذني، وفي قلبي.

كان شيخاً كبيراً، وكنا نتكوم حول مكتبه يبري لنا أقلام القصب، ويهدي لنا رسائل عليها خطه، وكان يُحسن الخط، ويحدثنا، فإذا أراد أن يؤدب واحداً منا أخذ برأسه فحناه على صدره (صدر الشيخ) ثم أمسك بالعصى بجمع يده، إبهامه إلى أعلى، ثم ضربه على ظهره ضربات لا تؤذي،

وكان إذا شتم قال للمذنب: "يحرق بدنك"، ويضرب لنا الأمثال، فيقول: كونوا مستقيمين، ولكن استقامة (الحورة) أي شجرة (الحور) لا استقامة عمود الكهرباء، الحورة تميل قليلاً مع الريح، وتبقى على استقامتها، أما العمود (وكان يومئذ من الخشب) فإنه يعاند حتى ينكسر.

ولطالما حفظت أحاديث صحيحة، وأحكاماً فقهية، ووعيت نصائح وحكماً، انتفعت منها في حياتي، كل ذلك من هذه الكلمات، فإذا دخل الغرفة المراقب، وكنا نسميه الناظر، وهو موظف لديه، وتابع له، قال ضاحكاً: لقد جاء فاهربوا" (٨٦).

الأستاذ العالم:

ويتحدّث بإعجاب شديد عن الشيخ الكتاني فيقول: "أما الشيخ الكتاني فقد كان آية في معرفة علوم الحديث، وكتابه العظيم الذي سماه - تواضعاً - (الرسالة المستطرفة) دليل هذا العلم الذي لا أعرف في هذا العصر ولا غيره من ألف مثله. وأحسبُ أنه أملاه إملاءً ...

وكنا نحضر درسه فيقرأ معيد الحلقة، وهو السيد محمد الزمزمي.. ثم يأخذ الشيخ بالكلام عن رواة الحديث، واحد

(٨٦) – المرجع السابق: ج١ - ص. ص(٦٩-٧٠)

واحداً، يذكر من وثقه ومن تكلم فيه، ثم يتكلم عن المتن كأنه يقرأ من كتاب، وذلك في هيبة ملك، وتواضع عابد، واطلاع عالم منقطع النظير، بلهجة مغربية حلوة" (٨٧)

المعلم الخطاط:

ومن معلمي الشيخ الطنطاوي في مدرسة(أنموذج المهاجرين) التي انتقل إليها في طفولته من مدرسة عيد السفرجلاني معلم الخط الذي يقول عنه الطنطاوي:

" هو أعظم خطاط ظهر في هذا القرن، أقرر هذا وأنا أعرف أكابر الخطاطين: سيد إبراهيم، وحسني البابا، ونجيب هواويني، وغيرهم من مصر، ومكارم والبابا في لبنان، وأعرف بعض كبار خطاطي العراق وأشهد أني ما رأيت مثل(ممدوح)، ولقد كان(ممدوح الشريف)أستاذاً عبقرياً في الخط، والذي تركه من آثاره شاهد عدل على ما أقول، ومن تلاميذه(بدوي)الخطاط العظيم وليس مثله ولا يدانيه.

كان ممدوح يبري أقلام القصب لأربعين أو خمسين تلميذاً ويكتب لنا(المشق)لنخط مثله،(وكان مقرراً علينا خط الرقعة، والثلث، والفارسي، والديواني)ويصحّح ما

(٨٧) - المرجع السابق: ج١ - ص٧٧

كتبنا كل ذلك في (الحصة) وهي أقل من ساعة" (٨٨).

الطنطاوي يغش في الامتحان:

ويحدثنا الطنطاوي بعد ثنائه الذي أسبغه على أستاذ الخط عن موقف له نزل به في نظره فيقول: " كتب (معلم الخط الأستاذ ممدوح) لكل واحد بقلم الرصاص السطور الثلاثة التي سنمتحن فيها، سطر الفارسي، وسطر الثُّلث، وسطر الرقعة، ودعا كبار الخطاطين ومنهم نجيب هواويني، وكلفنا أن نمشي بأقلامنا على خط الرصاص،كأننا نحن الذين نكتب الحروف.

وقد نلنا الدرجات العالية، وإعجاب المدعوين، ولكني أحسُّ إلى الآن بالخجل من مشاركتي في هذا الغش، وأشعر بأن المعلم صغر في عيني" (٨٩)

مجاملة في غير موضعها:

ويروي لنا الطنطاوي حكاية مدير المدرسة الذي أراد أن يجامله، فكانت مجاملة باردة في غير موضعها، فيقول: " كان في المدرسة لوحة شرف، فيها أسماء من تخرج فيها، وعند صورة كل منهم درجته وعلامة أخلاقه وسلوكه، وكان اسمي فيها وعلامة السلوك تسع من عشر.

---

(٨٨) - المرجع السابق: ج١ - ص٩٢

(٨٩) - المرجع السابق: ج١ - ص ص (١٠٠ - ١٠١)

فلما عُينت معلماً في هذه المدرسة سنة ١٩٢٥م، وجدتها عشراً من عشر، فقلتُ للمدير أما كانت تسعاً؟.

فقال: أعوذ بالله، أنت كنت مثال الخلق الكريم، والسلوك القويم. فتبسمتُ، وازداد هبوطاً في نظري" (٩٠).

المعلم اللغوي:

يقول الشيخ الطنطاوي في ذكرياته عن شيخه المبارك: "أما المبارك فقد كان الإمام في اللغة، والمرجع فيها، قَيَّد أوابدها وجمع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم (٩١) وروى أشعارهم، وكان المفرد العلم في بابته (٩٢)، ولا أعرف نظيراً له في العلماء، تحس إذ تجالسه وتسمع منه كأن الأصمعي وأبا عبيدة قد تمثلا لك في جبته، وكأن ما كنت تقرؤه من أخبار الرواة والحفاظ، قد عاد لك حتى رأيته بالعيان.

ولطالما دلَّنا على كتب، قرأتها وانتفعت بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب ولولاه ما سمعت بها.

ثم درسنا الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية ... ثم درسنا السيرة فجاء بشيء ما رأيت والله ولا سمعت بمثله، يصور الوقائع، ويصف أمكنتها، ويشرح ما قيل فيها، ويدل

(٩٠) - المرجع السابق: ج١ - ص ١٠١

(٩١) - أيام العرب: حروبها.

(٩٢) - يقال: من بابة فلان، إذا كان من أشكاله ونظرائه.

على مراجعها، فكأننا كنا فيها" (٩٣).

محاكاة معلِّم:

محاكاة معلم

ويحكي الطنطاوي مدى تأثره بالشيخ المبارك حتى أصبح يحاكيه دون شعور: "لقد كنا نقلِّد لهجته، ونحكي صوته، حتى صارت هي لهجتي في التدريس وأنا لا أدري.

❖ الأستاذ يترك مكانه للتلميذ

لما كنت أدرِّس في بغداد، أقيمت حفلة سمر في آخر سنة ١٩٣٦م فسأل الطلاب مدرسيهم، على عادة اعتادوها: هل يأذنون لهم أن يقلدوهم؟.

فكان منهم من أذن، ومنهم من أبى، وكنت فيمن أذن، فقام طالب يقلدني بزعمه،ولكنه قلَّد شيخنا المبارك.

فقلت: ويحك هذا شيخنا المبارك.

وإذا الطلاب يصيحون من الأركان الأربعة: بل هذا أنت، هذا أنت.

وإذا أنا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت مثله.. أعني مثله في لهجته ونغمته، لا في علمه ولغته، أين أنا من علم الشيخ؟.

---

(٩٣) – الذكريات: الشيخ علي الطنطاوي - ج١ - ص١٢٠ - مرجع سابق

واتصل حبلي بحبله، إلى أن توفاه الله، أزوره في داره، ويتفضَّل فيشرفني بزيارتي في داري" (٩٤).

وبين سطور هذه الحكاية نقرأ الطنطاوي الأستاذ الذي يتبسَّط مع تلاميذه ويسمح لهم بتقليده، وتمثيل حركاته، وطريقة كلامه، وتلك زاوية أخرى نرى منها الطنطاوي الأستاذ، حتى وهو يحكي لنا حكاية الطنطاوي التلميذ.

الأستاذ يترك مكانه للتلميذ:

وهذه حكاية أخرى يرويها واحدٌ من أخص تلاميذ الشيخ الطنطاوي: صهره عصام العطار في كلمته التأبينية التي نشرت في صحيفة الشرق الأوسط سنة ١٩٩٩م فقال: "في سنة ١٩٤٥ أو ١٩٤٦ افتتح المعهد العربي الإسلامي في دمشق وحضرت فيه بعض دروس ودَعتْ إدارة المعهد مرة الأستاذ الطنطاوي لإلقاء درس أو محاضرة أدبية على طلبة صفوفه العليا وبعض أساتذته، وحضر الأستاذ الطنطاوي فألقى الدرس أو المحاضرة، ثم طلب إلى الحضور أن يسألوا أو أن يعقبوا على ما قال، وتكلمت كما طلب وكان لي نظرة غير نظرته، ورأي غير رأيه في بعض ما سمعناه منه، وبعد نحو دقيقتين أو ثلاث استوقفني وطلب إلى أن أقف بدله على المنبر، وأن يجلس بدلي على مقعد الدرس، فأبيت واستحييت

(٩٤) – المرجع السابق: ج١ – ص١٢٠

فأقسم علي أن أفعل وقال لي بحرارة وحب: أنت أحق بأن يتلقى عنك، ثم التفت إلى الحضور وبينهم بعض الأساتذة وقال: والله لا أدري كيف يأتون بمثلي وعندهم هذا العالم الأديب.

ووقفت على المنبر ولم أتابع الحديث في ما كنت فيه، ولكنني تحدثت عن الأستاذ الطنطاوي وعن آثاره وخصائص أدبه حديث العارف المستوعب المتعمق، وهو ينظر إلى بدهشة ولا يكاد يصدق، فلما انتهيت قال لي: من أنت؟ قلت: عصام العطار.

قال: هل تعرف الشيخ رضا العطار؟

قلت: هو أبي، وكان أبي أيضاً من رجال القضاء" (٩٥).

أستاذان في صف واحد:

ومما يحلو لي ذكره هنا قصة الطنطاوي مع أستاذ آخر وقد دخل الطنطاوي لتقديم درسه فظنه الأستاذ الذي سبقه أحد تلاميذ الصف فكان هذا الموقف الطريف الذي رواه الطنطاوي عبر إذاعة الشرق سنة ١٩٤٥م ونشره في كتابه (من حديث النفس) فيقول: " لما كنت أعمل في العراق سنة ١٩٣٦م نقلتُ من بغداد إلى البصرة إثر خصومة بيني

---

(٩٥) - الشرق الأوسط ٢٠ - ٣ - ١٤٢٠هـ الموافق ٤ - ٧ - ١٩٩٩م

وبين مفتش دخل عليَّ الصف فسمع الدرس. فلما خرجنا (نافق) لي فقال إنه معجبٌ بكتاباتي وفضلي. (ونافقت) له فقلتُ إني مكبرٌ فضله وأدبه. وأنا لم أسمع اسمه من قبل. ثم شرع ينتقد درسي فقلتُ: وَمن أنت يا هذا؟ وقال لي وقلتُ له..

وكان مشهداً طريفاً أمام التلاميذ.. رأوا فيه مثلاً أعلى من (تفاهم) بين أخوين، وصورة من التهذيب والأخلاق. ثم كتبتُ عنه مقالة كسرتُ بها ظهره، فاستقال (وطار) إلى بلده، ونُقلتُ أنا عقوبة إلى البصرة.

وصلتُ البصرة فدخلتُ المدرسة، فسألتُ عن صف "البكالوريا" بعد أن نظرتُ في لوحة البرنامج ورأيت أن الساعة لدرس الأدب. وتوجهتُ إلى الصف من غير أن أكلّم أحداً أو أعرّفه بنفسي.

فلما دنوت من باب الصف وجدتُ المدرس، وهو كهل بغدادي على أبواب التقاعد، يخطب التلاميذ يودعهم وسمعته يوصيهم (كرماً منه) بخلفه الأستاذ الطنطاوي، ويقول هذا وهذا ويمدحني... فقلتُ : إنها مناسبة طيبة لأمدحه أنا أيضاً وأثني عليه ونسيتُ أني حاسر الرأس واني من الحر أحمل معطفي على ساعدي وأمشي بالقميص وبالأكمام القصار، فقرعتُ الباب قرعاً خفيفاً، وجئت أدخل، فالتفتَ

إليَّ وصاح بي أيه زمال وين فايت؟ (والزمال الحمار في لغة البغداديين) فنظرتُ لنفسي هل أذناي طويلتان؟ هل لي ذيل؟.. فقال: شنو ما تفتهم (تفهم) أما زمال صحيح. وأنطلق بـ(منولوجٍ) طويل فيه من ألوان الشتائم ما لا أعرفه وأنا أسمع مبتسماً.

ثم قال تعال لما نشوف تلاميذ آخر زمان. وقِّفْ احكِ شو تعرف عن البحتري، حتى تعرف انك زمال ولاَّ لا ؟

فوقفتُ وتكلمتُ كلاماً هادئاً متسلسلاً، بلهجة حلوة، ولغة فصيحة. وبحثتُ وحللتُ وسردتُ الشواهد وشرحتها، وقابلتُ بينه وبين أبي تمام، وبالاختصار، ألقيتُ درساً يلقيه مثلي.. والطلاب ينظرون مشدوهين.. ممتدة أعناقهم، محبوسة أنفاسهم، والمدرس المسكين قد نزل عن كرسيه وانتصب أمامي، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما من الدهشة، ولا يملك أن ينطق ولا أنظر أنا إليه كأني لا أراه حتى قُرِعَ الجرس..

قال: مَن أنت؟ ما اسمك؟ قلتُ: علي الطنطاوي؟

وأدع للسامعين الكرام(٩٦) أن يتصوروا موقفه!" (٩٧)

---

(٩٦) – قال: (السامعين) لأن المقالة أذيعت في أول الأمر من إذاعة الشرق سنة ١٩٤٥م.
(٩٧) – من حديث النفس: علي الطنطاوي – ص.ص (١١٩ – ١٢٠) دار المنارة

الأستاذ البهي الخولي:

وعلى طريقة الشيخ الطنطاوي يتحدث الشيخ يوسف القرضاوي عن أستاذه في المرحلة الابتدائية (البهي الخولي) فيقول: "في هذه السنة تعرفت على أستاذ جليل كان يدرس لنا مادة المحفوظات. وكانت هذه الحصة حصة للراحة لمن يأخذها من المدرسين، ولكن هذا الأستاذ حول هذه الحصة إلى محفوظات حقيقية، في كل أسبوع يختار لنا قطعة من النثر أو الشعر لنحفظها ويسوقنا بالترغيب والترهيب لحفظها.

وأذكر أن أول قطعة طلب منَّا حفظها، وكتبها لنا على السبورة كانت من أدب المنفلوطي، ومن موضوع (الرحمة) في كتابه (النظرات).

"ارحم الحيوان، فإنه يحس كما تحس، ويتألم كما تتألم، ويبكي بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين. ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها، أطلقها وأطلق سمعك وبصرك وراءها، فتراها أجمل من الفلك الدائر، والكوكب السيار".

كما أعطانا فقرات من قصيدة حافظ إبراهيم (العمرية) وقد كان مزهواً بها، وكان يشرحها لنا شرح المتيم بشخصية

عمر ومواقفه وروائعه، وشرح المربي الذي يوجه الطلاب إلى القيم العليا مجسدة في مواقف. وأذكر من هذه الرائعة العمرية هذه الأبيات في رحلة عمر إلى فلسطين :

ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا أن يلبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه خيل مطهمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالا براكبه وفي البراذين ما يزهي بعاليها
فصحت : ياقوم كاد الزهو يقتلني وداخلتني حال لست أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكمو عمرٌ ويبتغي بيع باقيه بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي به بدلاً ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها

وهكذا كانت دروس المحفوظات دروساً في الأدب والتربية والسلوك.

نسيت أن أقول : هذا الأستاذ هو الشيخ الداعية المربي البهي الخولي، خريج دار العلوم، وزميل الأستاذ حسن البنا" (٩٨).

أماني وأحلام الطلبة :

ويحدثنا أيضاً الشيخ القرضاوي عن أحد ظرفاء المعلمين فيقول: " ومن الطرائف التي أذكرها : أن جاءنا أحد المشايخ ونحن في السنة الأولى الثانوية، في حصة إضافية، وكان شيخا ظريفاً صاحب نكتة، فأراد أن يتسلى مع الطلاب،

(٩٨) - ابن القرية والكتاب : د. يوسف القرضاوي – ج١ /ص.ص (١٦٦- ١٦٧) مرجع سابق

فقال : أريد من كل طالب منكم أن يذكر أمنيته التي يريد أن يحققها في حياته، وفي مستقبل أيامه : ماذا يريد أن يكون ؟

وطفق الطلبة في الفصل يذكر كل منهم ما يريد أن يكون في مستقبل حياته، فقال أحدهم : أريد أن أكون ضابطاً في الجيش. وقال له الشيخ : ستكون إن شاء الله خفيراً حارساً على مقابر الموتى.

وقال أحد الطلاب : أريد أن أكون مدرساً في ثانوي الأزهر مثل فضيلة الشيخ. وقال الشيخ: ستكون معلم كتاب في قريتكم !.

حتى جاء عندي وقال لي : وأنت ماذا تريد ؟

قلت له : اسمح لي يا فضيلة الشيخ أن أصارحك بما أريد، إني أريد أن أكون شيخاً للأزهر !

وتوقع الطلاب أن يعلق الشيخ الساخر على طريقته، وخصوصاً مع غرابة الأمنية، ولكنه فاجأ الجميع بقوله : لا تستبعدوا هذا يا أولاد. فكم من أمل كبير قد تحقق، وكم من حلم بعيد أصبح حقيقة، وفي التاريخ وفي الواقع أمثلة كثيرة لأناس حلموا أحلاماً ظنها الناس من شطحات الخيال، أو من توقعات المحال، اجتهد أصحابها وجاهدوا حتى وصلوا

إليها" (٩٩).

الأستاذ الذي علم العقاد الانشاء :

ويحدثنا الكاتب الكبير عباس العقاد(١٠٠) في كتابه(أنا) عن أحد معلميه فيقول: "كان الأستاذ الفاضل مدرس اللغة العربية والتاريخ الشيخ محمد فخر الدين، وكان "الإنشاء" صيغاً محفوظة في ذلك الحين كخطب المنابر وكتب الدواوين، ولكنه كان يبغض الصيغ المحفوظة وينحي بالسخرية والتقريع على التلميذ الذي يعتمد عليها، ويمنح أحسن الدرجات لصاحب الموضوع المبتكر وأقل الدرجات لصاحب الموضوع المقتبس من نماذج الكتب، وإن كان هذا أبلغ من ذاك وأفضل منه في لفظه ومعناه.

وكان درسه في التاريخ درساً في الوطنية.. فعرفنا تاريخ مصر، ونحن أحوج ما نكون إلى شعور الغيرة على الوطن والاعتزاز بتاريخه، لأن سلطان الاحتلال الأجنبي كان قد بلغ يومئذٍ غاية مداه.." (١٠١)

الشعراوي في المعهد الأزهري:

ويروي لنا الشيخ الشعراوي هذه الحكاية مع مدير المعهد الأزهري فيقول: " ذات مرة تأخر القطار بعض الوقت..

(٩٩) - المرجع السابق : ص ص (٢١٠ – ٢١١)
(١٠٠) - عباس محمد العقاد: (١٨٨٩م – ١٩٦٤م) إمام في الأدب، مصري من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع.
(١٠١) - أنا: عباس محمود العقاد - ص ٥٧ - منشورات المكتبة العصرية - بيروت - بدون طبعة و لا تاريخ

ووصلت إلى المعهد بالزقازيق متأخراً.. فرأيت شيخ المعهد جالساً كعادته على بابه.. وحاولت الإفلات منه، لكنه كان قد لمحني فقال لأحد السعاة: هات الواد ده هنا.

وسألني: لماذا تأخرت؟ فقلت له إن القطار تأخر نصف ساعة، وليس أنا.

فسألني: ولماذا لا تحتاط، وتأتي مساء الجمعة، بدلا من فجر السبت؟

فقلت له: أنا متزوج يا سيدي..

فسألني: والجواز كويس واللا وحش؟ فخشيت أن أقول كويس، فيعتبرني قليل الأدب.. فقلت له: والله قلة قيمة.

فقال لي: ادخل، وإياك تتأخر تاني.

وانتهى الموقف عند هذا الحد.. ولكن عندما رآني صباح اليوم التالي ولم أكن متأخراً، وجدته يناديني: يا ولد.. قلة قيمة، قلة قيمة.

وكررها أكثر من ثلاث مرات.. وكان ينتهي في كل مرة بعبارة بس خلاص اسكت.. وسأله المشايخ الذين يدرسون لي: إيه حكاية قلة القيمة دي؟

فقال: أنا سألت الشعراوي عن الزواج امبارح، فقال دا قلة قيمة.. وبعد أن عدت لبيتي وجدته قلة قيمة بصحيح.

وهذه المسألة جعلت المشايخ يعتقدون أني قريب شيخ المعهد، ويتبادل حديثاً شخصياً معي. وكان يسأل الشيخ محمد سرور والشيخ مرسي سليم وغيرهما عني، فكانوا يؤكدون أنني طالب مجتهد.. وهذا الوضع جعلني اكتسب مكانة خاصة عندهم، وأصبحوا يطلبون مني الخطابة في كل مناسبة.

فاعتدت عليها، وشجعني هذا على تشكيل لجنة أدبية كانت تضم الدكتور عبد المنعم خفاجي(١٠٢)، والشيخ حسن جاد، والأستاذ طاهر أبو فاشا(١٠٣).. وأصبحت لي مكانة متميزة في مدينة الزقازيق." (١٠٤)

من طرائف المعلمين:

وفي بعض الأحيان يرفع المعلم التكليف بينه وبين تلاميذه بعض الشيء، ليتحبب إليهم، ويروي لهم بعض النوادر، وكثيراً ما يكون هو بطلها، ومما يحكيه المعلمون لتلاميذهم من طرائف، ينقل لنا الشيخ القرضاوي الحكاية التالية: "حكى لنا الشيخ أبو الروس: أنه تزوج مبكراً، وكان له أبناء يدْرسون، وهو يدرس أيضاً، فكلهم طلبة، يقول الشيخ: فقد

(١٠٢) – د. عبد المنعم خفاجي: (١٩١٥م –......) أزهري عالم بالتفسير واللغة والأدب، له في ذلك مؤلفات جاوزت الخمسمئة.
(١٠٣) – طاهر أبو فاشا: (١٩٠٨م – ١٩٨٧م) أديب وشاعر مصري.
(١٠٤) – مذكرات إمام الدعاة: إعداد. محمد زايد – ص ص (٩٢-٩٣) مرجع سابق

تكون النتيجة في بعض الأحيان أن أرسب أنا وينجح الأولاد، وأحياناً يعرف زملاؤهم ذلك، فيقولون معيرين لهم: يا أولاد الساقط!" (١٠٥).

سوء فهم بين القرضاوي والشعراوي:

سقنا حديثاً عن الشعراوي التلميذ في الكُتَّاب والطالب في معهد الزقازيق، فلنقرأ خبر الشعراوي الأستاذ بقلم أحد أبرز تلاميذه: الشيخ القرضاوي إذ يقول: "وأهم من درسني في المرحلة الثانوية، هو: الشيخ محمد متولي الشعراوي. وقد كان في تلك الفترة من حياته معروفاً بالشعر والأدب، ولم يكن معروفاً بالدعوة الدينية. وكان للشعراء مجال يبرزون فيه ويتنافسون، ويظهر كل منهم أنفس ما عنده من جواهر، وذلك في مناسبة الاحتفال بالهجرة النبوية أول محرم من كل عام. ويتبارى فيه الخطباء والشعراء من الأساتذة ومن الطلاب ، جاء الشيخ الشعراوي على معهد طنطا الثانوي، وأنا في القسم الابتدائي، واستمر يدرس فيه (علم البلاغة) لطلاب الثانوي، إلى أن وصلت إلى السنة الرابعة الثانوية، التي يدرس فيها الشيخ البلاغة من كتاب (تهذيب السعد) قسم (علم المعاني).

(١٠٥) – ابن القرية والكتاب: د. يوسف القرضاوي – ج١/ص ٤١١ – مرجع سابق

وكان الشيخ الشعراوي مدرساً ناجحاً تماماً، متمكناً من مادته، حسن التعبير عن مراده، محترماً من الطلاب، قادراً على ضبط الفصل، يتحرك يمنة ويسرة في أثناء شرحه، أشبه ما يكون بطريقته في دروس التفسير التي شهدها الناس منه بعد ذلك في حلقات (التلفزة).

وكان الشيخ الشعراوي من الناحية السياسية محسوباً على حزب الوفد، ومعدوداً من رجاله، ولكنه – والحق يقال – لم يكن من الحزبيين المتفلتين، فقد كان رجلاً ملتزماً بشعائر الدين، محافظاً على الصلاوات في أوقاتها، هو وزميله وصديقه الذي كان يدرسنا (تاريخ الأدب العربي) بقدرة وجدارة الشيخ المنوفي.

وكان حزب الوفد في هذه المرحلة في تنافس شديد، وصراع حار، مع جماعة الإخوان، فكلاهما يريد أن يكسب الشارع المصري إلى صفه. وبعد أن كان الوفد هو المسيطر على الشارع، وهو الذي يحرك الرأي العام إذا أراد، أصبح له في الميدان منافس قوي شديد البأس، يقود الجماهير باسم الإسلام، ويكسب كل يوم منه أرضا جديدة، ويخسر الوفد جزءاً من جمهوره التقليدي.

وهذا الصراع انعكس على طلاب الوفد وطلاب الإخوان

في المعاهد والمدارس والجامعات. وكان الإخوان أقوى صوتاً، وأشد تأثيراً، بمن لهم من ممثلين أقوياء، مثل مصطفى مؤمن زعيم طلاب جامعة القاهرة، أو قل: زعيم طلبة مصر كلها، والخطيب السياسي الجماهيرير الذي يسحر الألباب.

ويبدو من سياق الأحداث أن الشيخ الشعراوي قد شحن من قبل بعض المشايخ والطلبة الوفديين في المعهد، ضد طلاب الإخوان، وأنهم حذروه منهم، وأنهم قد يشغبون عليه في درسه أو نحو ذلك.

ومن دلائل ذلك: أني سألت الشيخ في أثناء درسه في البلاغة سؤالا علمياً بريئاً، كما أفعل مع كل أساتذتي، فأنا بطبيعتي أحب أن أفهم، وأحب أن أناقش، ولا آخذ كل شيء قضية مسلمة، ولكن الشيخ الشعراوي رأى السؤال تحدياً له، واستشاط غضباً، ظهر على صفحات وجهه، وقال لي يرد على التحدي – في نظره – بتحد مثله أو أقوى منه: اسمع يا يوسف، إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصاراً!! فقلت له: والله ما قصدت غير السؤال العلمي البحت، ولم يتجه تفكيري إلى ما فهمته قط.

وكان هو السؤال الأول والأخير، فلم أحاول أن أسأله بعد ذلك، حتى لا يسيء فهمي. ومضت السنة الدراسية، وجاء

الامتحان، وكان من نزاهة الشمراوي أن منحني أعلى درجة في الفصل" (١٠٦).

الغزالي يعترض على أستاذه:

ويتحدث الإمام الغزالي عن موقف له في أول عهده بالجامعة فيقول: "وجمعنا عميد الكلية في مسجد (الخازندارة) في حفل عام للتعارف واستقبال العام الجديد، وتوثيق العرى بين الطلاب وهيئة التدريس، وحدث في هذا الحفل أمر ذو بال، فقد كان بين من تحدثوا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق بالكلية، وجرى على لسانه ثناء حار على المجتمع الفرنسي، وتنويه بما يسوده من أمانة ونظام، وأهاب بنا أن نتمسك بهذه الخلال..!!

وغاظني ما سمعت، فانتفضت قائماً أصيح: أي خلال يا أستاذ؟ هؤلاء تقدموا في اللصوصية، اللص عندنا يسرق آنية من بيت، أو حافظة من جيب، أو ثمرة من حقل، وهؤلاء يسرقون الشعوب تحت الشمس، ويختلسون العقائد من القلوب!! .

أي خلال تعني يا أستاذ نلتمسها من هؤلاء المعتدين على إخواننا في أقطار المغرب - وكانت كلها محتلة - ولماذا لم تذكرنا بسلفنا العظيم؟

---

(١٠٦) - ابن القرية والكتاب: د. يوسف القرضاوي - ج١/ص.ص (٢٠٢- ٢٠٥) بتصرف مصدر سابق

وانطلقت وقادوني إلى عميد الكلية الشيخ عبد المجيد اللبان فرأى شابا في العشرين أفقده الحماس وعيه، فقال لي بصوت وديع: اقعد يا ولد!! فجلست أمامه، وكلف شيخا آخر بالتحدث إلى الطلاب الذين بدا أنهم متعاطفون معي، بل بدا أن أكثر المدرسين لم يستريحوا إلى توجيه الدكتور محمد يوسف، وأنهم يؤيدون موقفي..!!

لم يعاقبني عميد الكلية مكتفياً بإسداء بعض النصائح، وصرفني بعد انتهاء الحفل..

والغريب أن علاقتي بالأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى توطدت، وكنت فيما بعد أثيراً عنده، وطيلة مدة الدراسة بالكلية لم أستغن عن توجيهه وإرشاده، وبعد التخرج نَمَتْ بيننا صداقة عميقة وتعاون في خدمة الدعوة الإسلامية" (١٠٧).

القرضاوي يخالف أستاذه:

ويشبه هذا ما وقع للشيخ القرضاوي مع أستاذ التفسير من اختلاف إذ يقول: " ومما وقع في السنة الأولى: أني اصطدمتُ بأستاذي في التفسير، وهو الشيخ محمد مختار بدير. وكان الشيخ بدير رجلاً قارئاً مطلعاً أديباً شاعراً، ولكنه ضاق صدره بنقاشي،

---

(١٠٧) - مجلة (إسلامية المعرفة) ص-ص (١٦٥- ١٦٦) مرجع سابق

في قضية علمية عرض لها، خالفته فيها وهي: هل كانت دعوة نوح عليه السلام عالمية أو لا؟ وقد رجح الشيخ أنها عالمية، بدليل أن الطوفان عمَّ العالم، فلو لم تكن عالمية ما عوقب العالم كله بالطوفان.. وكنت في مناقشتي معتمداً على النصوص المسلَّمة، فالقرآن يقول: (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه) نوح/ ١، والحديث المتفق عليه عن جابر في الخصائص المحمدية: " وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس كافة".

ولكن في اليوم التالي لقيني الشيخ هاشاً باشاً، وقال: لقد ظلمتك يا قرضاوي، وراجعتُ المسألة فوجدتُ الحقَّ معك وقد سألتُ عنك فعرفتُ أنك من أهل العلم، كما علمتُ أنك شاعرٌ مثلي.

وانعقدت بيني وبين الشيخ بدير مودة عميقة، وكان كثيراً ما يشيد بي ويثني علي عند زملائه من علماء الكلية" (١٠٨).

العقاد يحل ما عجز عنه الأستاذ:

ويتحدث العقاد عن موقف معلم الحساب والهندسة وتجاهله جهد تلميذه في حل مسألة استعصت على الحل فيقول: "كان أستاذ الحساب والهندسة والرياضة. ولا داعي

(١٠٨) – ابن القرية والكتاب: د. يوسف القرضاوي – ج١ص.ص (٤١٠- ٤١١) مصدر سابق

لذكر اسمه في هذا المقام..

كان يؤمن بالخرافات وشفاعات الأولياء، وكان محدود الفهم في دروسه ولا سيما المسائل العقلية في دروس الحساب . . .

.. ولكن الدرس الأكبر – الدرس الذي أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس في صباي – كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية.. كنت شديد الولع بهذه المسائل لا أدع مسألة منها بغير حل مهما بلغ إعضالها..

وكان الأستاذ يحفظ منها عدداً كبيراً محلولاً في دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة، وقلما يزيد عليه شيئاً من عنده..

وعرضت في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل، وقال على سبيل التخلص: "إنما عرضتها عليكم امتحاناً لكم، لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب ومسائل الجبر، وهذه من مسائل الجبر لأنها تشتمل على مجهولين".

لم أصدّق صاحبنا ولم أكف عن المحاولة في بيتي، وقضيت ليلة ليلاء حتى الفجر وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء

حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام.. وجاء الفرج قبل مطلع النهار، فإذا بالمسألة محلولة وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها لأستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان.

قلت: لقد حللت المسألة.

قال الأستاذ: أية مسألة؟

قلت: المسألة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية.

قال: أو صحيح؟.. تفضل أرنا همتك يا "شاطر".

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني لشدة ما شغلتني وطول ما راجعتها وكررت مراجعتها.

وانتظرت ما يقال..

فإذا الأستاذ ينظر إليَّ شزراً وهو يقول: لقد أضعت وقتك على غير طائل، لأنها مسالة لن تعرض لكم في الامتحان.

كانت هذه صدمة خليقة أن تكسرني كسراً، لو أن اجتهادي كان محل شك عندي أو عند الأستاذ أو عند الزملاء، أما

وهو حقيقة لا شك فيها، فإن الصدمة لم تكسرني بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي، وصح فيها قول نيتشة: "إن الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه، أياً كان القائلون" ولم أحفل بعدها بإنكار زميل أو رئيس" (١٠٩)

سبب اشتغال العقاد بالأدب:

ويتحدّث العقاد عن أستاذه أحمد الجداوي فيقول: "كان أساتذتي جميعاً ممن اخترتهم بنفسي..نعم!.. ولكنني أحب أن أستثني أستاذاً واحداً كان حضوري عليه من اختيار أبي لا من اختياري، وذاك هو الشيخ أحمد الجداوي رحمه الله.. كان الشيخ أحمد من أبناء أسوان، وحضر العلم في الأزهر وزامل الأستاذ الإمام "محمد عبده" على أيام السيد جمال الدين..

كان هذا النابغة الألمعي أوسع من لقيت محفوظاً في الشعر والنثر، كان يطارح وحده خمسة أو ستة من القضاة والمدرسين والأدباء ... لاحظت عليه أنه لا يرى أمامه باباً إلا تطرق إليه، ومن ذلك أنه تعلَّم اللغة الإنجليزية لأن مجلسه كان يجمع بعض الأدباء المحيطين بها...

وقد حبَّبتَ مجالس الجداوي الأدب إلى نفسي لأول

(١٠٩) - أنا :عباس محمود العقاد - ص.ص (٥٧-٦٠) مرجع سابق

مرة ورغبت أن أتخذه فناً أضرب فيه بسهم، كما ضرب فيه الأستاذ، وصرت من ذلك الحين مهتماً بحفظ الشعر، ومطالعة كتب الأدب" (١١٠)

نبوءة الإمام محمد عبده:

ويتحدَّث العقاد عن تشجيع أساتذته له ونبوءة الشيخ محمد عبده فيقول: "كان أستاذنا في اللغة العربية والتاريخ الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي يعرض كراساتي التي أكتب فيها موضوعات الإنشاء على كبار الزوار لمدرسة أسوان، وكان كبار الزوار لهذه المدارس أكثر عدداً وأعظم شأناً من كبار الزوار لمدارس القطر كله، لأن أسوان كانت قبلة العظماء والكبراء من جميع الأرجاء في موسم الشتاء. واطلع الأستاذ الإمام الشيخ(محمد عبده)على إحدى هذه الكراسات فقال: "ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعدا.." فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمعت من كلمات التشجيع" (١١١)

وتشبه هذه النبوءة نبوءة أحد شيوخ الدكتور يوسف القرضاوي في صباه وهو الشيخ بيومي العزوزي، إذ يروي القرضاوي قصته تلك فيقول: " وكان الشيخ بيومي يعمل كاتباً في إحدى الدوائر الزراعية في القرية، وكان رجلاً ذكياً له قراءة في فقه الشافعية، واطلاع على (الإحياء)، وكان

(١١٠) - أنا :عباس محمود العقاد - ص.ص (٦٠-٦٢) مرجع سابق

يحبني ويعتز بي ويناديني دائماً بكنية التزمها، كلما جاء إلى دارنا ونادى من بعيد : يا أبا يوسف. قلت له : أنا يوسف ولست أبا يوسف ! قال : ولكني أناديك بهذا وأقول لك ما قاله أبو حنيفة لصاحبه أبي يوسف : لتأكلن الفالوذج على مائدة الملوك !" (١١٢)

سذاجة معلّم:

ويبقى المعلم محط أنظار طلابه، ولذلك نجد صورَ معلمين فقدوا اتزانهم ما تزال عالقة في أذهان التلاميذ بعد مضي عقود طويلة، فانظر إلى صورة ذلك المعلم الذي حدثنا عنه الكاتب أحمد السباعي فقال: "انتدبوا لنا الشيخ(إسماعيل)ليكون أستاذنا في تحفيظ القرآن ودراسة بعض مبادئ العلوم التي قرروا أن ندرسها إلى جانب حفظ القرآن.

وعز على الشيخ إسماعيل أن يعترف بمبادئ العلوم التي قررها لنا المنهج وكلّفه بها.. فقد كنا لا نزاول في فصله غير حفظ القرآن إن كان ما زاولناه عنده يُسمى حفظاً.!!... يصيح بنا(مين حافظ يا ولد؟)فيدعي أكثرنا وليس فينا صادق. ثم ينتقل أولنا ليجلس قبالته كما يجلس المصلي على ركبتيه، ولا يشرع في قراءة ما استظهر حتى يكون زميله قد

---

(١١١) -أنا :عباس محمود العقاد -ص.ص (٦٩-٧٠) مرجع سابق
(١١٢) – ابن القرية والكتاب : د. يوسف القرضاوي – ج١/ ٢٩ – مصدر سابق

زحف في هدوء حتى يستوي خلف الشيخ، ثم يفتح المصحف على مصراعيه ليتابعه الحافظ عن بعد ويقرأ ما فيه موهماً شيخنا أنه يقرأه غيباً. وتتكرر العملية بتكرار التلاميذ الذين ينتقلون لتسميع الشيخ ما حفظوا، ويزحف زملاؤهم إلى ما يلي ظهر الشيخ ليقابلوهم بالمصحف مفتوحاً تطالعهم فيه الآيات التي يقرؤونها.

ويبدو أن مصلحة التلاميذ المشتركة في الغش كانت تجمعهم على هذا التآلف والتساند، إلا أن الشذوذ الذي لا يخلو منه زمان كان يدفع بعضهم إلى مسارة الشيخ بحقيقة الواقع تولفاً أو نصحاً، إلا أن سيدي الشيخ كانت أخلاقه أكبر من أن تقبل الغيبة في الفصل، فكان يعلن هذه الأسرار كما يعلن أسماء أصحابها" (١١٢).

ضعف المعلم في مادته:

وضعف المعلم في مادته مكشوف لدى التلاميذ مهما حاول التمويه، إذ تَمَكُّنُ المعلم من مادة تخصصه تعدُّ من أهم مقوماته، وهذه نماذج لضعف المعلمين في موادهم وتلك آثار ذلك الضعف على التلاميذ هذا ما يؤكده الدكتور إحسان عباس في حديثه عن بعض معلميه: "كان التاريخ المقرر علينا هو تاريخ الدولة الأموية، ولكن معلّم التاريخ أمضى ثلثي

السنة وهو يتحدث لنا عن البدوي وكيف أنه هو والنخلة والجمل ثلاثة ممثلين على مسرح الصحراء، ثم بدأ في الثلث الثالث يرسّخ في أفهامنا أن التاريخ رياضيات ويقول مثلاً:

سعد بن أبي وقاص × رستم = معركة القادسية

- وكان أستاذ الفيزياء لا يحسن الجانب الرياضي من هذا العلم، ولهذا فوجئنا بأن امتحان الفيزياء كان في معظمه قائماً على مسائل رياضية، وهذا شيء لم نكن نملك تداركه، ولكن الله لطف بنا، حين اجتزنا هذا الامتحان العسير.

- وكنت قد تلقيت صدمة من معلّم الجغرافيا حين سألته عن قضية فلكية فأجابني: "هي مشروحة في الكتاب، واللي يفهم يفهم ولا ما يفهم لا عمره فهم" وجعلت هذه المادة مع محبتي لها ثانوية المقام بين سائر المواد، ولهذا لم أنل علامة النجاح فيها" (١١٤)

المعلم الطائش:

وإذا كنا نأبى النزق والطيش في التلاميذ، فيا للمصيبة عندما يكون سمة للمعلم، هكذا يصف الدكتور عبد الرحمن بدوي أحد معلميه فيقول: "كان الشيخ عبد الرحيم محمود؛ ولم أتتلمذ عليه، ولكنه كان هدف السخرية والتشغيب من

(١١٣) -أيامي: أحمد السباعي - ص.ص (٤٤-٤٦) مرجع سابق

الطلاب بحيث كان معروفاً لكل الطلبة. وكان حين يمشي في الطرقات بين الفصول يُنبذ بأحط العبارات، وكان هو يرد عليها بأقبح منها دون أدنى تحرّج. كان يرى في نفسه أنه من أعلم – إن لم يكن هو أعلم – الناس باللغة العربية. ولهذا كان حريصاً على تصيد الأخطاء اللغوية والنحوية الشائعة بين الشعراء والكتاب، ويزعم أنه وجّه النقد لأصحابها مباشرة، فكان يقول مثلاً: "بائس تجمع على بائسين، ومن الخطأ جمعها على(بؤساء)وقد نبهت حافظ إبراهيم(١١٥):(الشاعر)على هذا الخطأ وطالبته بضرورة تصحيحه في الطبعة القادمة"(١١٦)..وثمّ شيخ ثالث اسمه منصور بشر. وكان يجمع بين الطيش والنزق وبين الفتوّة والجهل. كان ضخم الصوت والبدن، يشرح الدرس وكأنه ينادي على بضاعة في السوق"(١١٧)

غلظة المعلم:

وغلظة المعلم صفة مرادفة للنزق، في نظر تلاميذه، فهذا طه حسين يتحدّث عن أحد معلميه فيقول: "وكان الشيخ.. غليظ الطبع، يقرأ في عنف، ويسأل الطلاب ويرد عليهم في عنف، وكان سريع الغضب، لا يكاد يُسأل حتى يشتم، فإن ألح عليه السائل لم يُعفه من لكمة إن كان قريباً منه، ومن رمية

---

(١١٤) – غربة الراعي: د. إحسان عباس – ص، ص (١٢٢– ١٢٣) مرجع سابق
(١١٥) – حافظ إبراهيم: (١٨٧١م – ١٩٣٢م) شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها.
(١١٦) – يقصد ترجمة حافظ إبراهيم لرواية(البؤساء) لفكتور هيجو.

بحذائه إن كان مجلسه منه بعيداً. وكان حذاء الشيخ غليظاً كصوته جافياً كثيابه. كان حذاء الشيخ غليظاً جافياً، وكانت نعله قد مُلئت بالمسامير، وكان ذلك أمتن للحذاء وأمنع له من البلى، ففكّر في الطالب الذي كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء في وجهه أو فيما يبدو من جسمه. ومن أجل هذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلُّوا بينه وبين القراءة والتفسير والتقرير والغناء" (١١٨)

مجلة الرسالة وكتابها أكبر المعلمين:

وتوجيه الطلاب والأخذ بأيديهم إلى قراءة النافع من مهام الأستاذ الناجح، ولننظر إلى أثر ذلك على الدكتور إحسان عباس، الذي يقول: "كنا من حيث المستوى المدرسي في الصف الثانوي الأول، وكان أستاذ اللغة العربية قد نصحنا أن نشترك في مجلة الرسالة المصرية، وكان الاشتراك السنوي يكلّف جنيهاً واحداً، فاشترك كل واحد من طلاب الصف في هذه المجلة، وكانت تصلنا بالبريد، وعليها اسم كل مشترك وعنوانه، والحق أن مجلة الرسالة أصبحت هي "المعلّم الأكبر" لنا، فيها نقرأ ما يكتبه طه حسين وعلي الطنطاوي ومصطفى صادق الرافعي(١١٩)، وزكي مبارك(١٢٠) وأحمد حسن الزيات(١٢١)، وغيرهم من

(١١٧) – سيرة حياتي : عبد الرحمن بدوي – ج١ – ص ص (٤١ – ٤٢) مرجع سابق
(١١٨) – الأيام : طه حسين – ص ٣٢٧ – مرجع سابق
١١٩) – مصطفى صادق الرافعي: (١٨٨١هـ – ١٩٣٧م) عالم بالأدب شاعر، من كبار الكتاب.
(١٢٠) – زكي مبارك: (١٨٩١م – ١٩٥٢م) أديب من كبار الكتاب المعاصرين.
(١٢١) – أحمد حسن الزيات: (١٨٨٥م ـــ ١٩٦٨م) صاحب مجلة الرسالة، أديب من كبار الكتاب مصري، من أفصح كتاب العربية ديباجة وأسلوبا.

كبار الكتاب ذوي الأساليب المتميزة" (١٢٢)

التدريس فن:

ويتحدَّث الدكتور إحسان عباس عن أستاذ التربية وعلم النفس في الكلية العربية بالقدس فيقول: "كان أحمد سامح(١٢٣) أستاذنا في التربية وعلم النفس التربوي قد تخرج في كلية الصيدلة في الجامعة الأميركية ببيروت، ولكنه استطاع بجهده الخاص أن يترجم كتباً في التربية وعلم النفس، وأن يؤلف في أصول التدريس، وكانت هذه الكتب هي الموضوعة بين أيدينا غير أن شخصية الأستاذ في تأثيرها كانت أقوى من الكتب، وكان أستاذاً مرناً لا يتجمد عند حرفية التعليمات التربوية.

أذكر أنه طلب مني تدريس "تاريخ الفينيقيين" للصف الثالث الابتدائي وحضّرت ورقة المنهاج للقيام بهذا الدرس، وعندما واجهت الطلبة لم يستطع مستوى الطلاب أن ينسجم كثيراً مع المنهاج، فوضعت المنهاج جانباً وكان يقوم على إلقاء السؤال والتدرج بالدرس بناء على الأجوبة، وحوّلت الدرس إلى حكاية مشوقة تتخللها حقائق تاريخية. وكان يحضر الدرس جميع زملائي والأستاذ أحمد سامح، وعند انتهاء الدرس أذن الأستاذ لزملائي بالتعليق والنقد،

((١٢٢) - غربة الراعي : د إحسان عباس - ج١ - ص ص (٩٢- ٩٣) مرجع سابق

(١٢٣) - أحمد سامح:) ١٨٨٤م - ١٩٥١م) فلسطيني من رجال التربية والتعليم، وله مؤلفات في التربية.

فأجمع أولئك الزملاء على أنه درس "فاشل" لأني تجاوزت فيه تعاليم الأسلوب التربوي الصحيح، فما كان من الأستاذ إلا أن قال: أنا أخالفكم الرأي وأعتقد أنه درسٌ ناجح. إن هذا المدرس موهوب في تحويل الدرس للصغار إلى قصة، ولعلكم لو دققتم النظر لوجدتم أن الطلاب كانوا مشدودين إلى الدرس؛ أفادني هذا الدفاع عن درسي لا لأنه منحني ثقة وحسب، بل لأنه علمني أن لا أقفٍ جامداً عند القواعد التي ينص عليها أهل التربية، بل أن أعمل فكري في الموقف وأختار ما يناسبه" (١٢٤)

التشجيع للكبار أيضاً :

ويشبه هذا الموقف موقف الدكتور: محمد قدري لطفي، من درس الشيخ القرضاوي في التربية العملية حيث يقول: "وأذكر ممن درسونا التربية العملية : الأستاذ الدكتور محمد قدري لطفي، وكان من أعلام التربية العملية في تدريس اللغة العربية، وله مؤلفات في ذلك، وفي أواخر الفصل الدراسي يأخذ طلبته إلى المدارس الحكومية، ليلقي كل منهم درساً نموذجياً، يختاره ويحضره، ثم يلقيه أمام الأستاذ وأمام زملائه، وفي اليوم الواحد نحضر عدة دروس، ثم نجتمع مع الأستاذ في جلسة خاصة للنقد والتقويم، وتُعطى الفرصة أولا

---

(١٢٤) - غربة الراعي: د. إحسان عباس - ص. ص (١٢٥- ١٢٦) مرجع سابق

للطلاب ليقوّموا عمل زميلهم ويبدوا ملاحظاتهم عليه، ثم يبدأ الأستاذ.

وأذكر ذلك اليوم الذي كان فيه درسي، وكان في إحدى مدارس العباسية بالقاهرة، وكنا أربعة من طلاب التخصص، وبعد أن ألقينا دروسنا اجتمعنا كالعادة، ونقد بعضنا بعضاً، ثم استمعنا إلى نقد الأستاذ الدكتور قدري، وكان نقده في الصميم: هذا كان عابس الوجه، وهذا كان قلق الشخصية، وهذا كان درسه تلقينياً لم يُشرك الطلبة معه، ولم يستثرهم بالأسئلة المناسبة، إلى أن جاء عندي فقال: أما القرضاوي فكان درسه مثالاً يُحتذى : في شخصيته، وفي وقفته، وفي ابتسامة وجهه، وفي إقباله على التلاميذ، وفي إشراكهم معه في كل الخطوات، وفي تلخيص درسه في النهاية، ولا يسعني إلا أن أشكر له، وأن أتمنى له دوام التوفيق في مستقبل حياته، وقد أعطاني الدرجة خمسين من خمسين" (١٢٥).

التشجيع:

ويذكر الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين(١٢٦) في كتابه(سيرة الفتى مفتاح)تشجيع معلميه عندما تحدّث عن مدرسته ومدرسيه في المرحلة الابتدائية فقال: "ولقيت فيها[أي المدرسة] التشجيع من أساتذتي وخاصة شيخي

(١٢٥) - ابن القرية والكتاب : د. يوسف القرضاوي - ج٢/ص.ص (١٥-١٦) مرجع سابق

محمد الحافظ وكان وثيق الصلة بإدارة المدرسة، وكانت تعتمد عليه كثيراً، لعلمه ولحيويته وعمله المتواصل فيها وإخلاصه، الذي لا حدود له" (١٢٧)

تأثر التلميذ بأستاذه:

وكم يبالغ التلميذ في التأثر والإعجاب بأستاذه، ولنقرأ ذلك بقلم الأستاذ / أحمد أمين(١٢٨) عندما تحدَّث عن الأستاذ(عبد الحكيم محمد)الذي تعلم منه الكثير فيقول: "أعظم ما كسبته في الإسكندرية، تعرفي بشخصية قوية، كان لها اثر كبير في نفسي.. كان أستاذاً للغة العربية في مدرسة رأس التين الثانوية، تخرج في دار العلوم، وكنت في الثامنة وكان في نحو الثانية والأربعين، وكان طويل القامة، معتدل الجسم جميل الوجه، ذا لحية سوداء، نظيفاً في ملبسه، أنيقاً في شكله من غير تكلف، اتصلت به فأعجبني من أول نظرة، واتخذني أخاً صغيراً واتخذته أخاً كبيراً... وكان في مدرسته محبوباً محترما، يجله زملاؤه ورؤساؤه وتلاميذه، أبي النفس عزوفاً عن الصغائر، يعتمد في دروسه مع تلاميذه على الحب لا على الإرهاب، ويترك لهم الحرية في الحديث والنقد إلى درجة تشبه الفوضى، ولم يكن في درسه مدرس لغة عربية فحسب، بل مدرس تفكير ونقد للمجتمع،

---

(١٢٦) – عبد الفتاح أبو مدين: (١٩٢٦م –......) كاتب وباحث في الأدب، رئيس نادي جدة الثقافي الأدبي سابقاً.

(١٢٧) – حكاية الفتى مفتاح – حكاية الفتى مفتاح– ص ١٤٢ – ط١ – رمضان ١٤١٦هـ فبراير – ١٩٩٦م.

(١٢٨) – أحمد أمين (١٨٧٨م – ١٩٥٤م) عالم بالأدب، غزير الاطلاع على التاريخ، من كبار الكتاب.

وما شئت من شؤون الحياة" (١٢٩)

شيوخ تمنى القرضاوي أن يعلموه:

يذكر الشيخ القرضاوي معلمين فضلاء تمنى أن يفيد منهم، ولكن الأمر لم يكن بيده، فَيُعَدِّدُ بعض فضائلهم وحسبهم أن يتمنى نجباء الطلاب الإفادة من عطائهم، فيقول: "وقد كان في معهد طنطا شيوخ مبرزون في علمهم وطريقة تدريسهم، كانت لهم شهرة واسعة، وسمعة حسنة بين طلابهم، تمنيت أن أكون تلميذاً لهم ولو في سنة واحدة من سنوات الدراسة الخمس. ولكني لم أحظ بذلك.

من هؤلاء : الشيخ عبد الباسط سليم، الذي كان يدرس الفقه الحنفي، بطريقة حية يجذب الطلاب إليه، وتحبب إليهم الفقه على جفافه. وكان يحدثني عنه زميلي في السكن وبلديي كمال عبد المجيد المصري، الذي كان يسبقني بثلاث سنوات.

ولكن القدر لم يتح لي هذه الفرصة.

ومن الشيوخ الأقوياء في المعهد : الشيخ عبد الكريم جاويش، الذي كان مراقباً للمعهد، وكان يدرس أحيانًا فيبدع ويجيد، ويتعلق به الطلاب" (١٣٠).

---

(١٢٩) – حياتي : أحمد أمين – ص ٦٠– مكتبة النهضة المصرية. القاهرة – ط٧ – دون تاريخ.
(١٣٠) – ابن القرية والكتاب – القرضاوي – ص-ص (٢٠٨– ٢١٠) – مرجع سابق

ثلاثة معلمين:

يذكر الطنطاوي أيادي معلميه عليه، ويخص بالفضل ثلاثة من معلميه في مكتب عنبر (المدرسة الثانوية في دمشق) آنذاك هم: عبد الرحمن سلام والمبارك وسليم الجندي، فيقول: " الثلاثة الذين منَّ الله بهم عليَّ في مكتب عنبر، فقبستُ منهم، وأخذتُ عنهم: سلام، والمبارك، والجندي..

أما الشيخ عبد الرحمن سلام، فهو الذي جرأني على امتطاء صهوات المنابر، ومقارعة الفرسان في ميادين البيان والذي كان عجباً من العجب، إذا احتاج أن يتكلم في موضوع لم يكن عليه إلا أن يفتح فمه، ويحرك لسانه. فإذا المعاني في ذهنه، والألفاظ على شفته، والسحر من حوله، والأنظار متعلقة به، والأسماع ملقاة إليه، والقلوب مربوطة بحركات يديه، وكان يرتجل الشعر كما يرتجل الخطب، شعراً دون أشعار المطبوعين المجودين وفوق شعر الفقهاء، وكان يرمي الكتاب (كتاب النحو) لا يحفل به، ويتكلم من أول الساعة إلى آخرها في اللغة والأدب وفي كل شيء، كأنه كان يريد أن يربينا على السليقة العربية بالمحاكاة والمران، وينفخ فينا من سحره ليجعلنا أدباء قبل الأوان.

وأما المبارك فما رأيت وما أظنُّ أني سأرى مدرساً له مثل

أسلوبه في الشرح والبيان، وفي امتلاك انتباه الطلاب، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخص في جملة واحدة فصلاً من فصول العلم.

وفي يوم من أيام سنة ١٩٢٣م دخل علينا الشيخ سلام ولكن لا كماً كان يدخل كل يوم، وألقى خطبة الوداع، ثم ذهب وذهبتْ معه قلوبنا.

وجاءنا مدرسٌ جديد فقعد على الكرسي، وما كان الشيخ سلام ولا الشيخ المبارك يقعدان أبداً، وفتح كتابه وجعل يقرر الدرس، بصوت خافت لا يكاد يُسمع، وكان هو الأستاذ الجندي..

... وكانت صدمة، وكانت خيبة للآمال، وكانت فجيعة... ووصل إليَّ (الدور) فأقامني على اللوح، وأملى عليَّ بيتين للمعري، وقال اقرأ، وفسِّر، وأعرب.

وانطلقتُ أخطب في موضوع البيتين خطبة حماسية مجلجلة كما علمنا الشيخ سلام، وإذا بالأستاذ الجديد يبتسم ابتسامة أحسست كأنها كوب ماء على نار حماستي، بل كأنها سكين غُرستْ في قلبي، وقال بهدوئه الساخر،

ولهجته التي لها نعومة السكين وحدّها، وقال: بعد، بعد، فسّر أولاً معاني الكلمات، الغريبة.فوقفتُ، ثم سألني عن دقائق الإعراب فوقفتُ وقفة أخرى، فقال لي:أرأيت؟ أتبني الدار قبل نحت الحجارة؟.

ورأيتني حقاً، أبني الدار قبل نحت الحجارة، أي أبني دوراً في الهواء، وصغرت عليَّ نفسي، بمقدار ما كبر الأستاذ في نظري.

وعدت أبدأ قراءة النحو والصرف من جديد، وكان الكتاب الذي نقرؤه هو قواعد اللغة العربية، وهو الجزء الرابع من الدروس العربية لحفني ناصف، وقد قرأت الأجزاء الثلاثة من قبل.

وهذا الكتاب يغني الطالب بل المدرس بل الأديب، عن النظر في غيره،وهو إعجوبة في جمعه وترتيبه، وإيجاز عبارته، واختياره الصحيح من القواعد، وهو أصح وأوسع من شذور الذهب، ومن ابن عقيل.

وعكفنا عليه وملأنا حواشيه البيض بتعليقات الأستاذ وفوائده، ثم ضاقت عنها، فألحقنا بين كل صفحتين من الكتاب ، صفحتين أو أكثر نملؤها بما نستفيده منه، وعرفنا

يوماً بعد يوم مقدار النعمة التي أنعم الله بها علينا حين جعلنا تلاميذ سليم الجندي" (١٣١)

خواطر القط عن معلميه:

وفي مقال للدكتور عبد القادر القط(١٣٢) في مجلة العربي عام ١٩٩٨م يسوق خواطر له مع معلميه فيقول: "لم يكن المدرس في المدرسة الثانوية بأقل تأثراً من تلاميذه، بطبيعة العصر وما جلب من تحولات في رؤية الحياة والتعبير عنها بالشعر والقصص والمقال، فكان يُقدم النصوص(المقررة)بحرية وتوسع وذوق شخصي، ويوجه طلابه في موضوعات(الإنشاء)إلى التعبير الحر عن الذات. واذكر — في هذا المجال — أن مدرس اللغة العربية طلب إلينا ذات يوم أن نكتب في موضوع عنوانه(خواطر في ليلة أرقت فيها)فأرقت له ذات ليلة وكتبت مقالاً طويلاً، لا بد أن أغلبه كان مقتبساً — دون أن أفطن- مما ترسب في خاطري من كتابات المنفلوطي(١٣٣).

وأعجب الأستاذ بالمقال إعجاباً كبيراً، وكتب تعليقاً في نهايته، مُجارياً إياي، أو على الأصح مجارياً المنفلوطي المصدر الأول لخواطر أرقي. وكنت قبل أن أنتهي من الدراسة الثانوية قد عقدت العزم على الالتحاق بقسم اللغة العربية

(١٣١) — ذكريات علي الطنطاوي / ج١ ص-ص (١٥٤- ١٥٦) مرجع سابق

(١٣٢) — د. عبد القادر القط (١٩١٦م — ٢٠٠٢م) أستاذ جامعي وناقد مصري بارز، نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي، له عدد من المؤلفات النقدية.

(١٣٣) — مصطفى لطفي المنفلوطي: (١٨٩٥م — ١٩٢٤م) نابغة في إنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه.

بكلية الآداب، يدفعني حبي للغة والأدب، وتشدني أسماء كبيرة لامعة تجاوز وجودها الجامعة إلى المجتمع المصري والعربي في الأدب والفكر والسياسة...

وكانت محاضرات طه حسين تتجاوز تقديم (الحقائق) إلى إثارة (التساؤل) ودراسة النحو للأستاذ المجدد إبراهيم مصطفى لا تقنع بتقديم (القواعد) بل تحاول أن تصل إلى مناهج جديدة وتربط النحو بالمنطق، في كتابه الرائد (إحياء النحو).

وكان المؤرخ الكبير عبد الحميد العبادي (يفسر) أحداث التاريخ ويفلسفها ولا يسوقها لطلابه مجرد أحداث ووقائع.

أما أمين الخولي، فقد تميز من بين الأساتذة جميعاً بقدرته على إثارة الجدل حول الرأي الواحد، وبقسوته (الظاهرية) في مناقشة ما كنا نقرأ في المحاضرة من بحوث، وكان بادي السخرية أحياناً، لكنها سخرية يقصد من ورائها أن يصرف الباحث عن الالتفات إلى رأي واحد دون النظر في وجوه أخرى ممكنة للموضوع أو القضية" (١٣٤).

(١٣٤) – مرفأ الذاكرة (سلسلة كتاب العربي ٥٤) ١٥ أكتوبر ٢٠٠٢م – ص ص (١٤٤-١٤٦)

لقاء بنت الشاطئ بأستاذها أمين الخولي:

وعندما يتطرق الحديث للشيخ أمين الخولي فلا بد من ذكر تلميذته الدكتورة بنت الشاطئ التي بلغ إعجابها بعلمه ومنهجه وشخصيته غايته، حتى ارتبطت حياتهما بصلة الأستاذ والمريد، ثم برباط الزواج الذي استمر حتى وفاة الخولي سنة ١٩٦٦م، وبقيت بنت الشاطئ وفيةً له حتى لحقت به عام ١٩٩٧م ومن حديثها عنه في كتابها(على الجسر)قولها عن أول درس حضرته له: "ودخل(الأستاذ الخولي)بسمته المتفرد، فألقى علينا التحية واقترح لكي نتعارف، أن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن، ولكل طالب أن يختار مبحثاً منها، يعده ويعرضه للمناقشة في الوقت الذي يحدده.

وبادرت فأعلنت اختياري للمبحث الأول، في(نزول القرآن).

وعندئذ سَرَتْ في القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته، لكنه لم يلق إليها بالا، واستطرد يعرض بقية المباحث، وأنا أتشاغل عن غيظي المكظوم، بالتفرج على عدد من الزملاء، في صراعهم المكشوف على المباحث الأخيرة، أرجاء للموقف الصعب.

وعاد الأستاذ يسأل كلَّ طالب منَّا، عن الوقت الذي يحتاج إليه في إعداد بحثه، فأجبت في عناد وشموخ:

- يكفيني يوم أو بعض يوم!

قال في نبرة اشفاق وتحذير:

- كذا!؟ فكري مليًا، فربما بدا لكِ أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت.

وأبيت أن أتراجع!

ولماذا أتراجع، ومبلغ علمي أن المادة مبذولة جاهزة، ومصادرها الأصلية في متناول يدي، فلن يحتاج الأمر معي إلى أكثر من بضع ساعات للمراجعة، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة!

ولم يفتني أن الأستاذ يراني تورطت في هذا التعجل، فكأني خشيت أن يأخذ عني فكرة خاطئة، فقلت أسأله، مُدِلَّةً بما أملك من ذخائر علمه:

- هل يكفي أن أراجع في موضوعي، كتاب (البرهان) للبدر الزركشي، وكتابي (الاتقان، واللباب) للجلال السيوطي، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية، وطبقات ابن سعد، وتفسير

ابن جرير الطبري؟

أجاب:

- كتاب واحد منها يكفي الآن، لو أنك عرفت حقا كيف تقرأين!

وكان هذا، آخر ما توقعت أن أسمع!

ألمثلى يقال ذلك، وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعييني أن أقرأه؟

وكبحت غضبي وأنا ألتمس للأستاذ العذر، فلعله يتصور أنني كغيري من الطلاب، وفيهم حقا من لا يعرف كيف يقرأ!

- ما ذكرت هذه الكتب إلا لأني قرأتها واستوعبت ما فيها، وإنما كان سؤالي عن مصادر أجنبية، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها إلى مراجعي!

فما زاد على أن قال:

- لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع، لما تورطت في مثل هذا السؤال المنكر!

وتحيرت لا أملك سؤالا ولا ردا، فما كنت حتى تلك

اللحظة، قد فكرت في التمييز بين المصدر والمرجع..

وتابعت الإصغاء إلى الأستاذ، وهو يلقي علينا مبادئ منهجه، حريصة على ألا تفوتني كلمة واحدة مما يقول!

وبجهد مرهق، تشاغلت عن عالمي النفسي المائج بشتى الخواطر، لأعي ما أسمع، ولا شيء يزعجني غير دقات ساعة الجامعة، معلنة عن سير الزمن..

وكنت أتمنى لو توقف الزمن، ليظل الأستاذ يتكلم، وأنا أصغي وأتعلم!

من ذلك اللقاء الأول، ارتبطتُ به نفسياً وعقلياً، وكأني قطعت العمر كله أبحث عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول.. ثم بمجرد أن لقيته لم أشغل بالي بظروف وعوائق، قد تحول دون قربي منه، فما كان يعنيني قط، سوى أني لقيته، وما عدا ذلك، ليس بذي بال!

وقد انصرفت من درسه الأول، في اليوم السادس من نوفمبر عام ١٩٣٦ م وأنا أحس أني ولدت من جديد...

وما كان أشق الطريق بعد ذلك!

لقد ظننت حينا أنني ما أكاد أصل إلى مرحلة

الدراسة العليا حتى يهون الأمر علي، إذ يصير لي حق اختيار المجال الذي أتخصص فيه وأفرغ له.

غير أني ما لبثت أن أدركت أن تلمذتي للأستاذ الخولي، جعلت ما فات من مصاعب الطريق، أهون من أن تقاس بما أستقبله منها.

كنت أشعر بالأستاذ الخولي معي، في كل ما أقرأ وما أكتب، فأخضع بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة منهجه وجبروت منطقة، فأطيل الوقوف عند كل كلمة، حتى ألمح سرها...

وحين أفضيت إليه بأنني في ريب من إمكان الوصول ببحثي إلى غايته، كان جوابه الذي ظل ملء مسمعي على طوال المدى:

- ومن قال أن الطالب يستطيع أن يصل بالبحث إلى غايته؟ نحن نعيش العمر كله طلاب علم، كادحين إلى ما نستشرف له في كل خطوة من جديد الآفاق والغايات. وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة في موضوعه، وجهد طالب العلم لا يقاس بمدى ما قطع من أشواط، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على

الطريق الطويل الممتد إلى غير نهاية ولا مدى..

وهكذا كنت أجد لديه لكل معضلة حلاً ولكل سؤال جواباً، فأشعر بالرضى عن نفسي إذ لم يخنها صدق الإلهام وسلامة الفطرة، فاتجهتْ بي إلى من أحس كلما لقيته أنني أولد من جديد، وأحس كلما جلست إليه وحضرت درسه، أن عالمي يرحب حتى لتضيق الدنيا عن أن تتسع له!" (١٣٥)

نقاش حاد بين الغزالي وأمين الخولي:

ويدعونا الاستطراد في الحديث عن أمين الخولي إلى تسجيل هذا اللقاء بين الشيخين محمد الغزالي الباحث عن وظيفة، وأمين الخولي مُجري المقابلة مع المتقدمين لتلك الوظيفة، وقد سجل الإمام محمد الغزالي هذا اللقاء في مذكراته التي نُشرت مقتطفاتٌ منها في مجلة (إسلامية المعرفة) فقال: "وحصول الأزهري على عمل كان على عهدنا شيئاً بعيد المنال، وهذا جزءٌ من خطة محكمة لتخريب الأزهر، وصرف الناس عن التعليم الديني كله.. ولاح الأمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف (الإمامة والخطابة والتدريس) الخالية بمساجدها..

(١٣٥) – على الجسر: عائشة بنت الشاطئ - ص.ص (١٢٢- ١٢٩) مرجع سابق

وتقدمت للمسابقة مع مئات كثيرة من(العلماء العاطلين)وكانت تحريرية وشفوية..

وفي الامتحان الشفوي وقعت بيني وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادة، بدأت بعمل مني كان طائشاً.. كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت أحفظه جيداً، وأجبت عن كل ما سُئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه، ويتنقل بي من صفحة إلى صفحة وأنا ماضٍ في التلاوة..

وردَّني في كلمة، فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقاً؟ فأنا أحفظ جيداً..!

وشتمني رئيس اللجنة — وكان الأستاذ أحمد حسين أخا طه حسين - وهو يومئذٍ مفتي الأوقاف.

وجاء دور الأستاذ أمين الخولي الذي طلب مني تفسير آيات قرأتها، وأجبت فخطأني وذكرت رأياً آخر في التفسير فخطأني، فقلت وأنا أضبط أعصابي: وددت لو أعرف الحق، فقد ذكرتُ كل ما أعرف! قال: ذلك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان.

وتدخل مدير المساجد الشيخ سيد زهران قائلاً للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه فدُله على الجواب! فقال مرة أخرى: ليس هنا..

فقلتُ بنزق: لا جواب إلا ما قلتُ، وأتحدى إذا كان هناك جوابٌ آخر!

وعاد الشيخ أحمد حسين إلى توبيخي، أما الأستاذ أمين الخولي فأدار ظهره معرضاً عني ومنهياً المناقشة.

ولكن سؤالاً وُجّه إليَّ من مدير المساجد: ألق الخطبة التي أعددتها، فقلت: اقترح أيَّ موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت في موضوع اقترحه وانصرفت..

وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين، وتم ذلك بما يُشبه خوارق العادات.! وعُيِّنْتُ إماماً وخطيباً ومدرساً بمسجد "عَزَبان" بالعتبة الخضراء، ولم يلق هذا الحظ أحدٌ من زملائي معي!" (١٣٦) ومن خلال هذا الموقف نتعلمُ درساً في التسامح مع المخالف ، والإنصاف ، ونبذ الضغينة ، فها هو الغزالي يأخذ حقه ، برغم حدته وتجاوزه مع ممتحنيه، ولكنها النفوس الكبيرة..

(١٣٦) - مجلة (إسلامية المعرفة) ص.ص(١٧٧ – ١٧٨) مرجع سابق

أستاذ معروف الرصافي:

يعتبر الشاعر العراقي معروف الرصافي(١٣٧) أستاذه محمود شكري الألوسي أكثر معلميه إفادة وأكثرهم تأثيراً عليه ويعلل ذلك بقوله: " كان يعطيني كل فرصة لأجل الاستفادة منه فلم يكن يضجر من سؤالاتي واستفهاماتي المتكررة، والحق كان شكري أفندي من المتضلعين في العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وبيان وعروض وغير ذلك من علوم العربية" (١٣٨).

الأستاذ الذي لقب الرصافي بهذا اللقب:

ويكشف لنا الشاعر معروف الرصافي، سر نسبته إلى الرصافة ، وسر لقبه(الرصافي) فيقول: "أول من سماني بالرصافي أستاذي السيد محمود شكري الألوسي، وسبب التسمية أنه ألَّف كتاب (بلوغ الأرب في معرفة العرب) وطبعه في مطبعة أهلية تقع في سوق الجبقجية (في سوق السراي) تسمى مطبعة دار السلام لصاحبها علي أفندي، وعهد إليَّ تصحيح الكتاب، فكنت أذهب كل يوم إلى المطبعة لأصحح المسودات وبعد أن تم الطبع قرَّضته بعدة أبيات كانتْ مصدَّرة في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب، وكتبت أسفلها اسمي (معروف) فلما اطَّلع الألوسي على قصيدة التقريض

(١٣٧) – معروف الرصافي (١٨٧٧م ـــ ١٩٤٥م) شاعر العراق في عصره، بغدادي المولد والنشأة والوفاة.

(١٣٨) – الرصافي يروي سيرة حياته: د. يوسف عز الدين- ص ٢٢٨ – دار المدى - سوريا – ط١ / ٢٠٠٤م.

أعجب بها وقال: اكتب بعد اسمك الرصافي، لأنك معروف الرصافة كما كان الكرخي معروف الكرخ. فلم أقبل فكتب الألوسي ذلك بخط يده، وبالرغم من أني حذفت ذلك أثناء الطبع فإنه صار يناديني بالرصافي ويذيعه وينشره حتى غلب علي"(١٣٩).

الأستاذة الأم سهير القلماوي:

وعلى طريقة بنت الشاطئ مع أستاذها الخولي يفرد الدكتور جابر عصفور لأستاذته الدكتورة سهير القلماوي(١٤٠) مقالة نُشرت في مجلة العربي سنة ٢٠٠٢م فيقول: "أدين لأستاذتي سهير القلماوي باشياء كثيرة، ربما كان أولها أنها جعلتني أدرك أن المرأة لا تقل كفاءة عن الرجل في الأعمال المختلفة، أو مجالات العلم المتباينة...

ازدادت الصلة بيني وبين سهير القلماوي بتعييني معيداً في قسم اللغة العربية وبدأت أسعى لتسجيل اطروحتي الماجستير معها، واقترحت عليها أن أعمل في الإيقاع الشعري، فقالت لي إنها لا تحبذ أن أبدأ حياتي الجامعية بموضوع لا أمتلك الكثير من أدواته، واقترحتْ أن أنتقل من دراسة

---

(١٣٩) - المرجع السابق – ص ١٨٢

(١٤٠) – د: سهير القلماوي: (١٩١١م – ١٩٩٧م) أكاديمية ومثقفة مصرية من جيل الرواد.

الإيقاع الشعري إلى دراسة التصوير في الشعر، وأخذت أعمل في الموضوع، وانتهى الأمر بتسجيلي رسمياً لدرجة الماجستير، واكتشفت في سهير القلماوي خلال ذلك الوقت أماً حنوناً إلى جانب الأستاذة، فكانت أمي التي ذهبت لآخذ موافقتها عندما قررت أن أخطب زميلتي التي أحببتها وأصبحت زوجتي وأم أولادي ورفيقة العمر إلى اليوم وشجعتني سهير القلماوي على أن أمضي فيما فعلت، بل قامت بدور الأم فعلاً، وكانت كذلك في حفل الزفاف الصغير الذي أقمناه، بل كانت الأم التي تلقت ابنتي الأولى التي أطلقت عليها – أنا وزوجتي- اسم سهير التي أصبحت أستاذة جامعية اليوم، ولا تزال تذكّرنا بأستاذتنا التي ندين لها بالكثير" (١٤١)

أحمد رامي يضرب مصطفى أمين على وجهه:

ويروي الأستاذ: مصطفى أمين(١٤٢) قصته مع أستاذه الشاعر أحمد رامي(١٤٣) في كتابه (أسماء لا تموت) فقال: "كنت تلميذاً في السنة الأولى بمدرسة المنيرة الابتدائية، وذات يوم دخل الأستاذ أحمد رامي مدرس الترجمة، وبدأ الحصة بأن ناداني وراح يمتحنني في المعنى العربي لبعض الكلمات الإنجليزية. وأجبت على السؤال الأول والثاني والثالث والرابع إلى التاسع إجابة صحيحة وسألني الأستاذ

---

(١٤١) – مجلة العربي – العدد(٥١٨) يناير ٢٠٠٢م ص.ص (١٠٨ – ١١٠)
(١٤٢) – مصطفى أمين: (١٩١٤م – ١٩٩٧م) كاتب صحفي مصري شهير.
(١٤٣) – أحمد رامي: (١٨٩٢م – ١٩٨١م) شاعر مصري كتب بالفصحى والعامية، لُقّب بشاعر الشباب

رامي ما معنى كلمة FULL وأجبت على الفور: مجنون يا أفندي.

وصاح الأستاذ رامي غاضباً: معناها (مملوء) وليس (مجنوناً) يا حمارا! ثم رفع يده وهوى بكفه على وجهي، وقفز طربوشي من أول الغرفة إلى آخرها. اسودت الدنيا في وجهي. رأيت نجوماً سوداء وحمراء تتراقص أمام عيني. أحسست بقوة الصفعة. تهاويت وكدت أسقط على الأرض. لكني تمسكت بيدي اليمنى بالمقعد واستندت إليه، وأخفيت مكان الصفعة باليد الأخرى والدموع تنهمر من عيني. كانت الصفعة مؤلمة. بقي مكانها محمراً فوق خدي. عدت إلى بيت الأمة – حيث كنا نقيم – وذهبت إلى أمي وشكوت لها الأستاذ رامي. فقالت لي: إنني أستحق هذه الصفعة لأنني لم أحفظ الدرس. ذهبت إلى سعد زغلول(١٤٤) أناديه (يا جدي) ورويت له ما حدث. وتصورت أن جدي الذي يحبني سوف يسخط على الأستاذ رامي، ويهاجمه... وفوجئت بسعد زغلول يخذلني، ولا يثور ولا يغضب وإنما يبتسم ويقول: إن معنى ذلك أنك ستنبغ في اللغة الإنجليزية! وعدت إلى غرفتي في بيت الأمة باكياً. رفضت أن أتناول العشاء...

ومضيت طول الليل أطلب من الله أن يأخذ الأستاذ رامي!

(١٤٤) -- سعد زغلول: (١٨٥٧م – ١٩٢٧م) زعيم نهضة مصر السياسية، وأكبر خطبائها في عصره.

يأخذه من مدرسة المنيرة الابتدائية.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت أنا وأخي علي(١٤٥) إلى مدرسة المنيرة. وحلَّتْ حصة الترجمة، ولم يحضر الأستاذ رامي. وبُهِتُّ أنا وأخي. إن الله استجاب إلى دعائي وأخذ الأستاذ رامي. سمع صلاتي وأخذ روح الأستاذ رامي. وسألت المدرسين أين الأستاذ رامي فقالوا إنه لم يجئ بعد اليوم.. وسكتوا.. وتأكدت أن يد الله صفعت الأستاذ رامي! إن يد الله أقوى طبعاً من يد الأستاذ رامي. لابد أن صفعة الله كانت قوية فقضت عليه قضاءً مبرماً!

وعشت عدة سنوات وأنا أؤمن أن الله أخذ الأستاذ رامي انتقاماً لي.. وبعد أربع سنوات ذهبت مع والدي إلى صالة سانتي بحديقة الأزبكية لأسمع أم كلثوم، وفوجئت بالأستاذ رامي على قيد الحياة، وفوجئت به يقف في الاستراحة وهو يداعب أم كلثوم وتداعبه وفي يدها دستة جاتوه.

ولاحظت أن رامي ليس العملاق الذي صورته لي الصفعة المؤلمة. كان رجلاً قصير القامة، رقيق الجسم، نحيف القوام، ليس فيه أي شبه بالمصارعين والملاكمين، وعلمت عندئذ فقط أن الله لم يأخذ الأستاذ رامي إلى جهنم.. وأن سر انقطاعه عن مدرسة المنيرة أن وزارة التربية والتعليم

---

(١٤٥) - علي أمين: (١٩١٤م ـــ ١٩٧٦م) من رواد الصحافة في مصر.

أوفدته في بعثة إلى باريس لدراسة اللغة الفارسية، وأنه بعد ذلك أصبح شاعر الشباب!

وأصبحنا الضارب والمضروب صديقين حميمين، وكلما كنت ألتقي برامي على مر السنين كنت أذكره بالصفعة فيضحك رامي ويقول: حذار.. أن تضربني الآن! إنني لا أحتمل الآن لطمة من إصبع!" (١٤٦)

الطنطاوي يودع تلاميذه:

ويحسن هنا أن أودع القراء الكرام بذكر كلمة الطنطاوي التي ألقاها مودعاً بها تلاميذه في درسه الأخير، إذ حدثهم بحديث لم يعهدوه وقد نقل من مدرسته في بغداد سنة ١٩٣٦م فقال: " أولادي ! انتظروا ! لا تخرجوا كتبكم، ولا تفتحوا دفاتركم، فما جئت لألقي عليكم درساً، وإنما جئت لأودعكم لأني نقلت من مدرستكم. إن الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق،وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق : فالموت فراق الحياة، والثكل فراق الولد، والغربة فراق الوطن، والفقر فراق المال، والمرض فراق الصحة.

إن الوداع صعب ولو إلى الغد، فكيف إن كان المودع صديقاً عزيزاً، فكيف إن كان ولداً، فكيف إن كانوا أولاداً ؟ أنتم

((١٤٦) – أسماء لا تموت : مصطفى أمين - ص،ص (٢٧٢- ٢٧٦) المصر الحديث للنشر – ط١ – ١٩٨٧م

أولادي، أولادي حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال، ولكن تنطق بها كل جارحة فيَّ، وأحسها من أعماق قلبي!

ولِمَ لا؟ ألستم تحبونني وأحبكم؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخف عليكم؟ ألم تروني آلم إذا تألم أحدكم، وأثور إذا تعدى أحد عليكم؟ ألم أفتح لكم قلبي حتى اطمأننتم إليَّ وأنستم بي، وخرقتم حجاب الخوف الذي كان بيني وبينكم، كما يكون بين معلم وتلاميذه، وغدوتم تدعونني لأشارككم في ألعابكم، وتقصون عليَّ أخباركم وتبثونني أحزانكم، وتنبؤنني بأسراركم، وتشكون إليَّ ما يصيبكم من آبائكم وأهليكم؟ فأي صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة، وأي سبب أقوى من هذا السبب؟

أنتم أولادي. فهل رأيتم أباً يودع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه؟ لقد شغلتم نفسي زماناً، وأخذتم عليَّ مسالكي في الحياة، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة، عن الصداقة الكاذبة، والود المدخول.

فكيف أقدر أن أملك نفسي وأنا أقوم بينكم لألقي عليكم كلماتي الأخيرة، ثم أمضي لطيتي لا أدري أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبداً" (١٤٧).

(١٤٧) – من حديث النفس: علي الطنطاوي – ص.ص (١٩٢ – ١٩٣) دار المنارة – جدة – ط٤ / ١٩٩٠م

وبعد:

فيا قارئي الكريم، ليت شعري لو قرأ الأساتذة ما سطرته ذاكرة التلاميذ، ما حالهم إزاء تلك المواقف التي نسوها وحفظها التلاميذ؟! فيا لهم من مساكين أولئك المعلمين الذين وقعوا ضحية طبائعهم، أو ضحية استهانتهم برسالتهم، وانقلب أمرهم مع تلاميذهم ليمسوا ضحايا لذاكرة وأقلام ضحاياهم، وهنيئاً لأولئك المعلمين الذين علوا برسالة التعليم وعلتْ بهم، لتَخْلُدَ أسماؤهم ومواقفهم في ذاكرة التلاميذ وفي مذكراتهم. ولو أنعمنا النظر لوجدنا أكثر الذين قرأنا طرفاً من أخبارها قد رحلوا عن دنيانا، وسيلحق الباقون، وسيدرك السابقين جميعاً هذا المتأمل في حكاياتهم..

ماتَ المُداوي والمُداوَى والذي

جَلَبَ الدواء وباعه، ومن اشترى!!

ولي ولأولئك جميعاً أسأل الله الكريم عظيمَ مغفرتِه وكريمَ إحسانِه وجميلَ عفوه.

صدر للمؤلف:

- (من طيبات أبي الطيب) ١٩٩٧م . دار المنارة
- (روائع الطنطاوي) ٢٠٠٢م . دار المنارة
- (الفوائد الطنطاوية) ٢٠٠٢م . دار المنارة .
- (قطف الأشواك) مجموعة قصصية ٢٠٠٢م . دار المنارة
- (على رصيف الحياة) مجموعة قصصية ٢٠٠٣م نادي أبها الأدبي.
- (الطنطاوي بعيون مختلفة) ٢٠٠٤م مركز الراية للتنمية الفكرية.

له تحت الطبع:

- (آراء في نشأة اللغة) دراسة.
- (التابوت) مجموعة قصصية .

له مخطوط :

- (مع الباكين زوجاتهم) قراءات في بعض قصائد رثاء الزوجات في الشعر العربي.

الفهـــــرس



مما يلفت انتباه قارئ السير الذاتية بروز مرحلة التَّعلُّم بأحداثها، ومواقفها، وتأثيرها على اتجاه الكاتب، وتأسيسها للمراحل الحياتية التالية لها، وبداية تكوين العلاقات الإنسانية مع المحيط الذي يتجاوز حدود الأسرة، فنجد رصداً دقيقاً لمواقف المعلمين وتصرفاتهم، وكلامهم وحركاتهم وسكناتهم، وعلاقاتهم بتلاميذهم، ونلحظ ذلك بشكل أكبر في حياة الأدباء خاصة والمثقفين بشكل أعم، مما يجعلهم يفردون صفحات غير قليلة في سيرهم الذاتية لمراحل تعليمهم، مما جعلني أتساءل: فيما لو علِمَ أولئك المعلمون، أن من بين تلاميذهم من سيُخلِّد أسماءهم، ويرصد حركاتهم بل سكناتهم، ويقيِّم مواقفهم، هل كانت كلماتهم ومواقفهم ستكون هي هي، أم أنها ستكون شيئاً آخر مختلفاً؟!

وأكاد أقول: (لا لن تكون) وأقدِّم هنا ما يؤيد غلبة ظني هذا، عبر هذه الصفحات التي تركِّز على جانب العلاقة بين التلاميذ ومعلميهم من خلال ما يختزنه التلاميذ في ذاكرتهم من مواقف وذكريات أثَّرَتْ بشكل أو بآخر في حيواتهم، ثم استرجعوها في موهن من العمر فدونوها، ثم ذهب الأستاذ والتلميذ وبقيت شهاداتهم للتاريخ..